NDU Spirit نشرة دوريّة
حول علامات الحياة
في عالم جامعة سيّدة اللويزة
تصدر عن مكتب العلاقات العامّة.

تمّوز ٢٠٠١ العدد ٢١

هيئة استشاريّة
عمداء الكليّات

رئيس التّحرير
جورج مغامس

التّحرير بالانكليزيّة
كينيث مورتيمر

تَحقيق أنشطة
روزيت فاضل

مشاركة
مندوبو الكليّات والأندية الطلاّبيّة

إخراج
تكنوپوب

طباعة
مطابع معوشي وزكريّا

جامعة سيّدة اللويزة
زوق مصبح: هاتف:٥/٤/٢/١/٢١٨٩٥٠(٠٩)
برسا: هاتف:٧٤٩٤٠٢ (٠٣) - ٣/٢/١/٤١٦١٠١(٠٦)

www.ndu.edu.lb/newsandevents/nduspirit

في العدد

مُعتَقلُ الأوهام	جورج مغامس	٢
الرئيس في عيده...		٤
مؤتمر: التعدّديّة والديموقراطيّة		٥
المياه والتشريع	القاضي د. فايز مطر	١١
الموازنة العامّة بين الدستور والواقع	مع عدنان ضاهر	١٨
لبنان وإيران في حوار الثقافات	أ. د. أنطوان مسرّه	٢١
من تاريخ الحركة الطالبيّة في لبنان	مع الياس عطاالله	٢٥
الحركة الطالبيّة في لبنان: عصر التوهّج	د. منصور عيد	٣١
والدي كما عرفته	رشاد بولس سلامه	٣٤
حسن جوني: خصوصيّة خصبة ناضجة..		٤١
البتول	د. سامي مكارم	٤٦
رسائل بولس الرسول	الأب وليد موسى	٤٨
يا رفقا المعلّمة، علّمينا..	الأب سمير غصوب	٥١
أيقونة رامبراندت والتوبة	الأب البير عسّاف	٥٢
حين يعزف وليد مسلّم	محمّد ماضي	٥٤
الديوان للدكتور منيف موسى	الوزير د. ميشال موسى القاضي د. غالب غانم السفير فؤاد الترك د. منيف موسى	٥٥
مخطوطة الايساغوجي للتولاوي		٦٣
العذراء مريم في لبنان لأنور صابر، الجزء الأوّل	قضاء عكّار	٦٥
الوفاء قبلة الوداع	جو معكرون / خرّيج	٦٦
من منشورات الجامعة		٦٨

مُعتقَلُ الأوهام!

لا المجامعُ العلميّة ولا القراراتُ الحكوميّة ما يحرّرُ اللغةَ العربيّة من سَلَفيّة الأحكام، مجاريَ ومذاهبَ ومدارس...

الجامعةُ هي مَن لهذه المسؤوليّة!

فهي، بما تعلّمُ وتُعدُّ وتَنشر، بعلميّة مجرّدة شَفوف، تَتبنّى وتَبني توقَنا الغاضبَ إلى لغةٍ جديدة تَحكي وتُحاكي معالمَ الحياة الجديدة، بما هي عليه من رحابة أو شراسة تركيبٍ وتعقيدٍ معرفيٍّ وسلوكيٍّ متناسلٍ ومتنامٍ بلا هَوادة.

وإنّها، إنْ أقدمتْ، تَحمي وتُحمي تلك البشارات، يجترحُها المَرْدُ من كتّابنا والشّعراء، من نزوحٍ إلى الأعماق ونزوعٍ إلى الأبعاد، ويَقصبون فضاءَ الدّهشة.

لا.

لا يَغربُنَّ عنّا أنّ القلميّين الجماليّين الرؤيويّين هم طليعةُ الثّورة المرتجاة.. مُلهموها والمنارات. لكنّهم، ليسوا ليكونوا أو يكوّنوا مجالسَ تخطيطٍ وتنظيمٍ أو تعبئة وحشد. فمثلُ هذه أوْلى بالمؤسّسات البحثيّة الرّسوليّة ذاتِ الفعلِ العَموديّ والأفقيّ المُستدامِ في حركة المجتمع المتوالية.

والجامعاتُ عندنا، ولكي لا تكونَ مصانعَ لإعادة إنتاجِ الماضي فحسب، على ما في هذا الماضي من جليلٍ بديعٍ يُغني ويُحيي، وتُتّهمَ بالتّالي بأنّها عَبَدةُ موتى وحرّاسُ قبور.. إنّما هي مدعوّةٌ بالحريّ، إلى الانفتاح بجدّيةٍ صلبةٍ وصارمة على جُملة منظومات العصر المعرفيّة، ومواجهتها بجهاديّة دؤوب، بلوغاً إلى استيعابها وتقطيرها وتأطيرها من جهة، ثمّ تخميرها وتثميرها وتجييرها من جهةٍ ثانية.

بلى.

يجبُ أن يُختمَ على جُموح التّلقينيّة، في الجامعات، بالشّمع الأحمر.

يجبُ أن نَحجرَ على هذا الجُنوح الخطر.

وإلاّ، أين ومتى وكيف نُنتجُ المعرفةَ ونعمّمُها؟!

ولهذا، لا بدَّ من مراكزِ أبحاثٍ في الجامعات، ليس تتميماً وتجميلاً للمشهد العامّ في سُوق الاعلام الاعلانيّ، ولكنْ بغَرَضِ التّصدّي للُبّ القضايا والمسائل المحوريّة والمفصليّة في تاريخ هزيمتنا المتمادية، فنَعلوها برافعة المباضع ولُقيات الفطن في آنٍ معاً.

أمّا اللغةُ فإنّها رأسٌ كبير بين رؤوس تلك القضايا والمسائل. وهي جميعاً، نحن حيالَها في إشكاليّة خطيرة، عنوانُها: معضلةُ «العقل» العربيّ المعاصر!

ألا إنّه عقلٌ شقيٌّ بمحنة الاستسلام والتّبعيّة والجمود، يَطفو على طحالبِ المحنّطات، ويَتمسّحُ بـ «تابو» المقدّس!

وإذا ما أشرقتْ عليه، يوماً، شمسٌ، وسمع نداءَها إلى الحريّة، وهَمَّ باقتحام المغامرة، شدَّه الحنين، رغبةً أو رهبةً، إلى ذاكرة التّراث الشّجيّة.

ومن الحبِّ ما قتل - يقولُ الشّاعر!

فلماذا لا نرفعُ أيديَ هذا الحبّ، هذه الغيرة القاتلة، عن تلك اللغة، ونتيحُ لها أن تهجرَ المتحفَ الذي صنّمناها فيه، فتعاشرُ النّاسَ في الشّوارع والمصانع والحقول، وفي الأندية والملاهي ودُور الاتّجار والابتكار..، وتَتمرّى بالثّلج وتغتسلَ بالبحر وتسافر...؟

لماذا لا نُلبسُها أزياءَنا، ونطيّبُها بعطورنا، ونُجلسُها إلى موائدنا في دفء عيالنا، ونُشركُها في همومنا واهتماماتنا وآلامنا وآمالنا والأحلام، ونبوحُ لها بحميميّاتنا، ونخوضُ وإيّاها عوالمَ السّياسة والاقتصاد والاجتماع والتّكنولوجيا...؟

لماذا نُبقيها غريبةً عنّا، ونَبقى غرباءَ عنها.. نُفردُها في حَريم أحزمة العفّة، فتَذوي على جمالها، وتَضْمُرُ على غناها، وينكسرُ خاطرُها دون دلالات الحداثة وإيقاعات العصر؟

لماذا لا يَحقُّ أن يكونَ لنا فيها نصيبٌ، ويكونَ لها منّا نصيب، فنتلاقحَ ونتخاصبَ، على قياسِ ما كان من إبداعٍ واختراعٍ في القرن العاشر؟

أتُرانا دون أولئك العرب كفايةً وجرأة، فلا نجدُ إلى التّجديد سبيلاً، ولا إلى الاضافات النّهضويّة عُدّةً ووسيلة؟.. أم نحن نَخشى من الحرّاسِ في الطّرق: جاهليين قاصرين، وشعوبيين مشبوهين،

وزميّتين فرّيسيين،.. يَنفخون برياح الإدانات تَتْرى، فنؤثرَ أن نوصدَ أبوابَنا دون أبواقهم وأجواقهم ونستريح؟!

إنّ هذا «العقلَ» العربيَّ المعاصر، وَاقرَننا العاشرَ، يحترفُ رَجْمَ الفجرِ ووَأْدَ النَهارات..!

فإلى متى هذا الطّلاقُ الغبيّ بين اللغة والحياة، بل هذا الجمودُ والتّحجّر،.. في حين أنّ كلَّ شيءٍ حولنا لا يَكفُّ عن حركةٍ وتفجّر؟!

ولأنّ الكونَ بات قريةً بشبكات الاتّصال والتّواصل، وسلطةُ المعرفة فيه تَبزُّ سائرَ السّلطات،..

وباعتبار أنّ لغتَنا العربيّةَ في مأزق الحصار، في واحة ذخيرة من زمن وَلّى،.. وهذا العالمُ يُنتجُ ما يُنتجُ ويَضخُّه سيولاً سيولاً حتّى الإعجاز في الاستيعاب،..

فإنّنا لَإلى ثورة عاجلة جداً نحتاجُ حقّاً!

وخيرٌ للعربيّة أن تقودَ الجامعاتُ هذه الثّورةَ، من أن تبقى في بَلبال بين الغابر والحاضر.. قناعاً يغيّبُ وجهاً،.. وَلْيبقَ الحديثُ عن واجبِ وجود أكاديميا عربيّة إلى اليوم الذي يُصلحُ فيه العربُ ما بأنفسهم!

وَلْيعلم الغَيارى على العربيّة، هؤلاء الذين يُسدلون على عينيها حُجُبَ العصبيّة، ويكبّلون قدميها بأصفاد التّبعيّة، أنّهم إنّما هم يُسيئون إليها أيَّما إساءة، لأنّهم يقطعون عنها صُرّةَ الحياة.

واللغةُ تكونُ لغةَ الحياة، أو لا تكون. بها وفيها يكونُ الفهمُ والإفهام، والتّفهّمُ والتّفاهم. فهي الحياةُ في أصولها وفروعها، وفي منابعها ومجاريها، حاضراً نابضاً موصولاً بماضٍ مشعّ، مضامينَ ودلالاتٍ وأساليبَ تعبير.

ولأنّ اللغةَ توأمُ الحياة، والدةً ووليدةً،.. والحياةُ علومٌ وفنون، وأنماطُ عيشٍ وسلوك، وأحوالٌ وحالاتٌ وتحوّلات..، فهل يُقبَلُ أو يُعقَلُ ألّا تكونَ عربيّتُنا على غير هذه الصّورة كمثالها؟!

وإنّني، إنْ قيل لي: هو الاسلامُ!، أسارعُ لأُجلّ الاسلامَ عن مثل هذه الهرطقة الخبيثة المدمّرة. وهل دينٌ يقول بالشّورى، ويرعى الانسانَ في أمور دنياه، ويَتَسمّى مُعَمَّموه فقهاءَ وعلماءَ ومُفتين ومُجتهدين، وكان له الفضلُ في نشر العربيّة مع انتشاره، وفي حفظها إبّانَ الاستعمار: من المغوليّة إلى العثمانيّة فالإفرنجيّة وخلائف الحروب العالميّة،.. هل هو دينٌ يمكنُ أن يحظّرَ ويكفّرَ محاولاتِ تطوير العربيّة لتتّسعَ لحياة بنيها؟!

إنّ الاسلامَ بَرَاءٌ من كلّ فَرضٍ أو غَرضٍ ينحو هذا المنحى. واللّهُ، يومَ أوحى به، شاءه جوهراً يُحيي، لا عَرَضاً يُميت. وهل هو إلاّ رسالةٌ منه، تعالى، في العالَمين، تُبَلَّغُ فتَهدي؟!

بلى.

إنّ أُولى الأمانات وأَولاها بالعناية تحريرُ العربيّة من معتقل الأوهام.

وإلى الآن، لا نفعلُ إلاّ أن نشكوَ، وليس من يُقدِّمُ الحلولَ، أو من يَشدُّ على يد أصحابها متى هم أقدموا!

فَلْنكفَّ إذاً عن اتّهام لغتنا، وَلْنتّهمْ أنفسَنا، ليس لأجل الإحباط، بل لأجل الاستنهاض.

والمطلوبُ وُرَشُ عمل مشرعةُ الأبواب، ودائمةُ الانعقاد، وعلنيّةُ النّقاش،.. يأخذُ فيها الاعلامُ موقعَه ودورَه، وتأخذُ منه الوقعَ والوقائع.

وإنّي، لو عدلتُ في المطلق، لَقسوتُ في حكمي على إعلامنا حكمَ كثيرين، وفيه مَن فيه من قراصنة ومرتزقة وأنصاف وأرباع من كذا وكَيت علماً أو جهلاً على حدٍّ سواء... لكنّني أمنحُه طرفيَ الآخر، فأراه جزءاً من كلٍّ مَصدوعٍ أو منهار. وإنّي، في ما أرى، أرى من يَفدون إليه من الجامعات لا يَملكون مقوّماته الأدبيّةَ.. واللغويّةَ خاصّةً.

بل أراهم يَنشُدون قيماً من سلّم قيمٍ مقلوب، قدّم المالَ على الرّجال، والمظهرَ على الجوهر...

فهم والاعلامُ واللغة ضحيّةُ مجتمعٍ هو نفسُه ضحيّةُ عقلٍ في غربةٍ أو غيبوبةٍ أو غباء،..

وكلّما نَخَعْتَه أفرختْ منه هامةٌ وصاتَتْ: المؤامرة المؤامرة!

والمؤامرةُ، لو ندري، خرافةٌ رويناها وصدّقناها، يومَ خارت فينا قوانا، وانثنينا نبكي ونَستبكي، لا مقاومةٌ ولا جهاد..

وليتَنا نَدري أنّ طواغيتَ الأرض كلّها، وقوّات الجحيم.. لن تَقوى علينا، إنْ نحن أعدنا له اعتبارَه وأدوارَه!

ومتى كان العقلُ نوري وخلاصي، فَممّن أخاف؟

ولن أخافَ القولَ إنّ مشكلتَنا في عقلنا أوّلاً.

فَلنصدقِ القولَ ليصدقَ الفعل. وَلْنُقمِ المصالحةَ مع عقلنا!

إنّ العولمةَ تقرع أبوابَنا بعنف، ونحن ننامُ نومةَ أهلِ الكهف.

ألا إلى اليقظة، إلى النّهضة.. إلى بعثٍ وقيامة.. إلى الإبداع حقّاً.

وسبحانَه اللهُ ميّز الإنسانَ بالعقل!

وهل عقلٌ لا يرى ما عليه العربيّةُ من ضمور وقصور، تعليماً وتعلّماً، مكتوبةً ومقروءةً ومخطوبة؟

فواعرباه!

الرئيس في عيده شاهراً سيف السلطة والغيرة

.. وتَحلّقوا حوله محبّةً واحتراماً، وفي عيونهم فرحُ العيلة بربّ العيلة، ودعاءٌ على الشفاه بطول العمر والمزيد من القدرة على الثَبات في مواجهة التحدّيات بغيةَ دفع الجامعة نحو مواقعَ أكثرَ تقدّماً وتألّقاً، خدمةً لشبيبتنا ومجتمعاتنا، في لبنان ومحيطه الرحب.

وقد كان ذلك يوم عيد القدّيسين بطرس وبولس، حيث توجّه **الأب بطرس طربيه** إلى العمداء والأساتذة والموظّفين، الذين قصدوا مكتبَ الرئاسة للتهنئة بالعيد، بكلمة شكر فتأكيد على ضرورة التشدّد في حَمل رسالة التربية والتعليم، إيفاءً للأمانة التي أوكلتها إلينا الكنيسة، بشخص الرهبانيّة المارونيّة المريميّة، بلوغاً بالانسان والأوطان إلى مراتب أرقى وأسمى، معارفَ وأخلاقاً. ودعا الجميع إلى البقاء واحداً لأجل هذه الغاية النبيلة: بناء الانسان الجديد، والوطن الجديد، بالقيم على أنواعها...

.. وحمل السيف لقطع قالب الحلوى، وقال: **هوذا سيفُ السلطة والغيرة.. سيف بطرس وبولس!**

وكان نخبُ المناسبة...

التعدّديّة والديمقراطيّة

مؤتمر*

في ١ و ٢ حزيران ٢٠٠١، احتضنت جامعة سيّدة اللويزة سياسيين وباحثين من لبنان وسواه شرقاً وغرباً، في إطار مؤتمر حول التعدّديّة والديمقراطية.

افتتاحاً رحّب **الأستاذ سهيل مطر**، مدير العلاقات العامّة في الجامعة بالمشاركين مشدّداً على أنّ هذه الجامعة هي النموذج اللبنانيّ للحوار والحريّة التعدديّة والديمقراطيّة. وأضاف إنّ جامعتنا لا تفرّق ولا تميّز، إلاّ في الدفاع عن كرامة وموقف. ثمّ طرح عدّة أسئلة حول التعدّديّة ومفهوم الهويّة والديمقراطيّة وتركها للبحث والحوار والنقاش.

رئيس الجامعة **الأب بطرس طربيه** ركّز على أنّ هدف الجامعة الأساسيّ هو نشر الوعي والمسؤوليّة ولعب دور توجيهيّ للوصول إلى المحبّة والتعاون والابتعاد عن العصبيّات والغرائز. ثمّ تكلّم عن تاريخ لبنان التعدّديّ والديمقراطيّ كما ورد في الإرشاد الرسوليّ، وعن شرعة حقوق الإنسان. وختم بالترحيب بالضيوف الكرام، متمنّياً لهم طيب الإقامة.

* أعمال المؤتمر كاملة تصدر قريباً في منشورات الجامعة

وتلا الأب طربيه معالي النائب **وليد جنبلاط**، الذي شكر للجامعة دعوتها، مركّزاً على التوقيت المناسب لطرح موضوع التعدّدية. ورأى بأنّ التعدّديّة، هي الرأي الآخر في السياسة والثقافة والاجتماع والاقتصاد، وحصانة المجتمعات الديمقراطيّة، وضرورة في عمليّة التقييم أو التصحيح، في سياق التأكيد أن لا حقيقة مطلقة، بل إنّ الحقيقة هي تطوّر دائم لمجموعة عناصر متجانسة ومتعارضة معاً، وأنّها، دائماً، تبقى نسبيّة في المكان والزمان، في عمليّة الإبداع المتواصل للإنسان وللعقل الإنسانيّ.

الجلسة الأولى التي ترأسها معالي **النائب بطرس حرب**، وعنوانها «التعدديّة: النظريّة، البيئة، والأنظمة السياسيّة»، كان أوّل المتكلّمين فيها **د. شاهين غيث**، فقدّم بحثاً بعنوان «التعدّديّة: النظريّة والممارسة»، شدّد فيه على أنّ الديمقراطيّة تعني التمثيل المتساوي للأفراد والمواطنين في العمليّة السياسيّة، وأنّ حجر الزاوية في التعدديّة الديمقراطيّة هو

حماية الأقليّة. وأضاف بأنّ النظام الفدراليّ هو الذي يؤمّن حماية حقوق الأقليّات، ويمنع عنهم الاضطهاد.

وقدّم د. **عقل كبروز** بحثاً بعنوان «التعدديّة والمشاركة في السلطة»، ركّز فيه على أنّ جميع المواطنين يجب أن يكونوا متساوين أمام القانون، ولهم الحقّ المطلق في أن يشاركوا في السلطات الثلاث: التنفيذيّة والتشريعيّة والقضائيّة. وطرح موضوع إرادة الفرد وحرّياته، التي منها تنبع إرادة المجموعة، وصولاً إلى إرادة الدولة، ثمّ تعود إلى الفرد في حلقة دائريّة. واعتبر بأنّ النظام الأفضل لمنع هيمنة فريق في المجتمع على الفرقاء الآخرين، هو النظام اللامركزيّ الموسّع أو الفيداليّ الذي يسمح لكلّ المجموعات المتنوّعة في البلد بالمحافظة على ثقافتها وتاريخها وشخصيّتها المتميّزة، ويفسح في المجال أمام الفرقاء جميعاً للمساهمة في عمليّة النموّ والتطوّر في البلد.

الدكتور **إيلي سميا** كان بحثه بعنوان «الديمقراطيّة: النظريّة، مميّزاتها، وحكم الأكثريّة». وفيه عبّر عن هواجس حقيقيّة ومنطقيّة تراود الجميع، مركّزاً على ضرورة فحص نوايا بعض الأفرقاء على الساحة اللبنانيّة لمعرفة ما إذا كان كلامهم يعبّر عن نواياهم الحقيقيّة أم إنّهم يبطنون عكس ما يعلنون.

ثمّ تناول د. **جوزيف فاضل**، في بحثه، التعدديّة والاندماج، مشيراً إلى عدّة مشاكل ومصاعب، معتبراً بأنّ المصاعب تزداد في المجتمعات ذات الطبيعة الثنائيّة. ورأى بأنّ التعدديّة هي نموذج للتعايش بين المجموعات السياسيّة، وتداخل مستمرّ في ما بينها، ارتكازاً على قواعد وقوانين تنظّم التصرّفات العامّة.

الجلسة الثانية ترأّسها نائب رئيس الجامعة للبحوث د. **أمين الريحاني**، وكان موضوعها «التعدديّة: الفلسفة والتطوّر».

أوّل المتحدّثين كان د. **ضوميط سلامة** تحت عنوان «التعدديّة: نظرة فلسفيّة». وقد شدّد على اختلاف الأشخاص من جهة الشخصيّة والتقاليد والقيم والثقافات، وكيف أنّ هذه الاختلافات غالباً ما تؤدّي إلى إذكاء نار الخلافات والنزاعات.

ثمّ تكلّم د. **أنطوان كرم** عن «التطوّر الاقتصاديّ في المجتمع التعدّديّ»، متوقّفاً عند العلاقة بين التنمية الاقتصاديّة والتنوّع والفقر والحروب الأهليّة بما في ذلك النماذج الاقتصاديّة القياسيّة. إنّ الفقر، يقول كرم، وبالأخصّ المتمثّل في تفاوت مستويات المعيشة بين المناطق والمجموعات الاثنيّة التي تؤلّف المجتمع إنّما هو إحدى الطرق التي يسلكها التطرّف والعنف المجتمعيّ، اللذان يؤدّيان إلى حروب أهليّة، إذا ما توفّرت العوامل المخرّبة، داخلياً وخارجياً.

الدكتور ربيع الدبس، في بحثه حول «العلمنة والحكم الدينيّ في المجتمع التعدّديّ»، قال بوجوب تحويل الدولة الدينيّة إلى دولة علمانيّة. وفيما ذكر أنّ مبادئ حزب البعث تقوم على الجمع بين العلمنة والدين، أشار إلى أنّ العلمنة مبنيّة على التفكير العقلانيّ. ثمّ رأى بأنّ الطريق إلى العلمنة في لبنان طويل وشاقّ، على أنّ الوضع الآن ليس صحيّاً وطبيعيّاً، وأنّ النزاع الطائفيّ جاهز للانفجار في أيّ لحظة ما يؤدّي إلى تدمير استقرار البلاد ومسيرة تقدّمها.

في الجلسة الثالثة تحدّث د. **جورج سكينر** عن التعدّديّة الدينيّة في بريطانيا، حيث تستفيد المدارس الكاثوليكيّة والمسيحيّة واليهوديّة من المساعدات الحكوميّة، والتي تُحجب غالباً عن الأقليّات التي استقرّت في بريطانيا بعد الحرب العالميّة الثانية. ودعا سكنر المدارس الخاصّة للاستفادة من المساعدات الحكوميّة، إلاّ إذا كانت ترفض وضع برامجها تحت رقابة الحكومة.

أمّا **البروفيسور سيمون بيترمان** فتحدّث عن التعدّديّة في بلجيكا، شارحاً التطوّر التاريخيّ للمؤسّسات الدستوريّة، وقائلاً إنّ الحلّ الفدراليّ الذي اعتمد عقّد الأمور قانونياً، ولكنّه نجح لأنّه اعتمد الطرق الديمقراطيّة من دون إراقة دماء.

ثمّ تحدث د. **فلوريان بايبر**، مشيراً إلى أنّ اتفاقيّة «دايتون» أنشأت على الأقلّ ثلاث حكومات في البوسنة: واحدة للصرب، وأخرى للألبان، وثالثة فدراليّة، فضلاً عن البلديّات، لكنّها فشلت في إدخال شعور المواطنيّة إلى البلاد.

وأخيراً، تحدّث د. **ميروسلاف نوفاك** عن التعدّديّة في أوروبا الشرقيّة، بعد انهيار الاتحاد السوفياتيّ والأنظمة الشيوعيّة.

في **الجلسة الرابعة** التي ترأّسها سماحة **السيّد حسن الأمين**، أجرى د. **طلال طربيه** عرضاً للصراعات الدينيّة والعرقيّة التي شهدتها منطقة الشرق الأوسط عبر التاريخ، مقترحاً نوعاً من الحلّ الفدراليّ على النمط الأوروبيّ، حيث تتمتّع كلّ أقليّة بحقوقها كاملة.

وفي كلام العلاّمة **السيّد هاني فحص** على التعدّديّة ومشاكلها، دعا الأكثريّة الشعبيّة في الشرق الأوسط إلى الاعتراف بحقوق الأقليّات، خاصّة أنّ المسيحيّة والإسلامِ يؤكّدانِ على تعدّد الملل والشعوب والأعراق.

أخيراً تناول د. **نعيم سالم** الاعلام ودوره في المجتمعات التعدّديّة، مشدّداً على أهميّته وعلى خطورة عدم استعماله بشكل بنّاء، لأنّ من شأن ذلك تقوية الصراعات.

أمّا نهار السبت الواقع في ٢ حزيران ٢٠٠١، فقد خُصّص لبحث موضوع التعدّديّة في العالم العربيّ.

بدأت الجلسة الصباحيّة برئاسة د. **عقل كيروز**. وكان د. **هنري ملكي** أوّل المتكلّمين. ركزّ ملكي على حقوق الانسان والأقليّات في لبنان، موضحاً بأنّ القيم التي يؤمن بها المسيحيّون والمسلمون في لبنان، وبالأخصّ ما يتعلّق منها بموضوع حقوق الإنسان، تكاد تكون ذاتها مع بعض الاختلافات الطفيفة. وأضاف بأنّ على الجميع في لبنان أن ينسوا خلافاتهم ويتطلّعوا قدماً إلى المستقبل من خلال تعايشهم التعدّديّ، لأنّ أيّ تفرّد من إحدى المجموعات ينتهي بالفشل وبالكارثة.

أعقبه في الكلام كلّ من د. **موفّق التكريتي** ود. **إلهام الشهابي**، مقدّمَين بحثاً بعنوان الانصهار الوطنيّ في العراق. شدّد الباحثان على وجود عقبات متنوّعة تحول دون صهر المجموعات الإتنيّة في العراق، وخاصّة العرب الأكراد؛ ويرجع ذلك إلى تمسّك الفرقاء بأصولهم العرقيّة. وخلصا إلى القول بأنّ الحلّ لصهر هذه المجموعات المتنوّعة يكمن في اعتماد مبدأ اللامركزيّة، الذي يتيح للأقليّات أن تعبّر عن نفسها، وأن تمارس هوايتها القوميّة والثقافيّة من دون أيّة مضايقة.

ثمّ قدّم **الأب سمير خليل** مقارنة تحليليّة حول التعدّديّة في كلّ من أوروبا والعالم العربيّ. يقول الأب خليل بأنّ مفهوم الإسلام للمواطنيّة في العالم العربيّ هو، وإلى حدّ بعيد، مختلف مع مفهوم الأمّة، بينما مفهوم المواطنيّة، في أوروبا، هو احترام وحفظ حقوق الفرد. وفي الوقت الذي يحبّذ فيه الأب خليل تطوّر مفهوم الأمّة إلى المواطنيّة، لا يرى بأنّ الأمور، على المدى الطويل، سوف تصل إلى ظهور نظام سياسيّ إسلاميّ باستطاعته أن يستوعب المجموعات المتنوّعة الموجودة في العالم العربيّ.

الجلسة الأخيرة كانت برئاسة النائب **ناظم الخوري**، بعنوان: التجربة اللبنانيّة.

وفيها تحدّث د. **يوجين سنسينغ**، فركّز على الأقليّات والمشاركة السياسيّة في الشرق الأوسط. وفي رأيه أنّ المشاكل التي تقف في وجه التعدّديّة في المنطقة ليست الناس، بل السياسات المعتمدة. ويرى الباحث بأنّه لا يمكن تطبيق مبادئ التعدّديّة في الغرب على منطقة الشرق الأوسط، على أنّ الطريق المثلى هي اتّباع أسلوب الخطوة خطوة لتحقيق مبدأ نظام التعدّديّة في العالم العربيّ.

وعن التعدّديّة في لبنان تحدّث د. **إدمون نعيم**، فشدّد على مبدأ الديمقراطيّة التمثيليّة على جميع مستويات الحكومة، والتي ستمكّن المواطنين للتعبير بشكل كلّيّ عن مصالحهم، سواء كانوا يريدون اختبار اللامركزيّة أو الانفصال الكامل.

وتكلّم د. **فريد سلمان** عن التعدّديّة الثقافيّة في لبنان، مشدّداً على أنّ التعدّديّة اللبنانيّة محكومة بثلاثة عناصر: دينيّة، ومذهبيّة، وعقائديّة. والحلّ يكمن في القوميّة اللبنانيّة التي في إمكانها أن تلعب دور الضامن أو الحارس للتعدّديّة الثقافيّة.

ثمّ تناول د. **كمال بو شديد** المناهج التعليميّة في كلّ من لبنان وسوريا، موضحاً أنّ المناهج في سوريا تأثّرت بمبادئ القوميّة العربيّة، بينما في لبنان تأثّرت بمبادئ الوطنيّة اللبنانيّة. ولاحظ بأنّ تعليم التاريخ، في كلا البلدين، يؤدّي إلى دعم متزايد لشرعنة مبادئ التعدّديّة والديمقراطيّة.

آخر المتكلّمين كان د. **جورج لبكي ود. إدوار صيّاح**، اللذان دعيا إلى توسيع نظام اللامركزيّة في لبنان، بإعطاء مزيد من الحريّة والصلاحيّات للحكومات المحليّة (البلديات)، لأنّ هناك تلاحماً بين مبدأي اللامركزيّة والديمقراطيّة. وبالنسبة إليهما، اللامركزيّة، بحدّ ذاتها، قد تؤدّي فيما بعد إلى الكونفدراليّة أو الفدراليّة، وذلك بالاعتماد على رغبة الأفرقاء في البقاء ضمن كيان سياسيّ واحد أو بالانفصال التامّ. ودعا د. صيّاح إلى ما كان سبقه إليه د. نعيم من اعتماد نظام فيدراليّة الطوائف، بحيث تنتخب كلّ طائفة ممثّليها في المجلس النيابيّ، مع التشديد على بقاء لبنان موحّداً أرضاً وشعباً.

. . وفي ختام المؤتمر، صدرت **الاقتراحات والتوصيات** الآتية:

أوّلاً: – تطبيق، في أسرع وقت ممكن، كلّ ما ورد في وثيقة الطائف فيما يختّص بالإصلاحات الإداريّة، ومبدأ اللامركزيّة الموسعّة إداريّاً وثقافيّاً وسياسيّاً وسواها.

ثانياً: – توسيع صلاحيّات البلديّات لخدمة المواطنين، مع وضع مشروع قانون يلحظ مبدأ الثواب والعقاب في حالة الغشّ وعدم الكفاءة، فتكون البلديّة مسؤولة عن كلّ ما يهمّ المواطن ضمن حدودها: من بيئة إلى طرق إلى قوانين سير إلى تنظيم سكنيّ الخ. . .

ثالثاً: – وضع قانون انتخابات يضمن لكلّ طائفة حقوقها في التمثيل الصحيح. وهذا يعني أنّ كلّ طائفة ترشّح اثنين منها لكلّ مقعد نيابيّ. وأمّا اختيار أحد هذين الاثنين فيكون بانتخابات

عامّة تشارك فيها الطوائف الأخرى. على سبيل المثال، يحقّ لقضاء بشريّ أو غيره ممثّلان مارونيّان. فالطائفة المارونيّة وحدها ترشّح أربعة موارنة أو أقلّ، ولكن عند الانتخابات يشارك جميع اللبنانيّين، من كلّ الطوائف، في انتخاب ممثّل المقعد.

رابعاً: – وضع مشروع تربويّ حديث، ابتداء من صفّ الحضانة، يساعد على إلغاء التعصّب الطائفيّ من القلوب، وإعطاء الفرص لدمج الأطفال ثقافيّاً واجتماعيّاً، بعضهم مع بعض، وصولاً إلى الجامعة. وهنا، نقترح إلزاميّة التدريس، في كلّ الجامعات، لمادّة العلوم السياسيّة حول النظام والمؤسّسات الدستوريّة اللبنانيّة، ليتعرّف الشباب على وطنهم ونظامه.

خامساً: – تحديد موعد للقيام بحوار لبنانيّ صريح بين الطوائف كلّها والقياديين، للوصول إلى تحديد هويّة وأهداف مفهوم المواطن والمواطنيّة اللبنانيّة، ووضع قوانين ملزمة وصارمة في هذا الصدد تنبذ التعصّب الطائفيّ، وذلك بإعلان رسميّ وصفح شامل وعادل لكلّ ما نتج عن الحرب ومسبّباتها، بما في ذلك موضوع المساجين والمستبعدين، وصولاً إلى كلّ الشعب ذي الإرادة الإيجابيّة الوطنيّة.

سادساً: – العمل على تحديث وعلمنة أغلبيّة القوانين اللبنانيّة بالحدّ الأقصى، وتسهيل عمليّة الاختلاط بين الطوائف بكلّ أشكالها، واعتماد روح الدين وليس حرفه.

سابعاً: – إعطاء كلّ طائفة حقّها في التمثيل الحكوميّ، من وزراء إلى مدراء عامّين إلى ما تبقّى من الوظائف العامّة، حتّى يكون التمثيل متوازياً ومتساوياً ومختلطاً.

ثامناً: – إنشاء مركز قضائيّ حرّ ومستقلّ في كلّ قضاء يستمع إلى شكاوى المواطنين المدنيّة، ويحقّق العدالة، فلا يعود الأمر لقائد المخفر وغيره حيث تستعمل الرشوة ويحصل الفساد.

تاسعاً: – إنشاء مركز بحوث ودراسات استراتيجيّة يخطّط للدولة، بكلّ مرافقها، في سياستها الداخليّة والخارجيّة وسائر الحقول من اجتماع وإدارة ومال الخ... على أن يستقطب هذا المركز النخبة من المفكّرين والعلماء الباحثين.

عاشراً: – الحرص على حفظ وتنمية الثقافة التعدّديّة، ليكون لبنان الجامع حقّاً ما بين الثقافات، وبالأخصّ ثقافتي الشرق والغرب، على مستوى المدارس والجامعات وسواها من مجتمعات التربية والتعليم والمعرفة.

حادي عشر: – الحرص على نظام ديمقراطيّ حقيقيّ يحفظ حقوق جميع شرائح المجتمع، ويعتمد الحوار وليس القسريّة.

المياه والتشريع

القاضي د. فايز مطر

الموضوع: التشريعات الموجودة في القانون اللبنانيّ والمتعلّقة بسلامة المياه والحدّ من تلوّثها، ودور القضاء والتشريع في تطويرها وتطبيقها

المبحث الأوّل: لمحة عامّة حول أهميّة المياه ودورها وضرورة المحافظة عليها

المياه مصدر الحياة، ولولا المياه لما وجدت الحياة. وهي عامل جوهريّ بوجودها، ورمز التطهّر. وحاليّاً مصدر للتهديدات. المياه هذا الذهب الأبيض، لها قيمتها الاستراتيجيّة. ولذلك، نخشى أن تصبح في الألفيّة الثالثة مصدراً للنزاعات، في حين أنّه من الممكن أن تصبح طريقاً للسلام. فتاريخها يختلط بتاريخ الانسانيّة. ولذلك، جاء في بنوءة اسحق ما حرفيّته «سأضع مياهاً في الصحراء وأزهاراً في الأراضي القاحلة». ووفقاً لرأي روجيه كانس (Roger Cans)، في كتابه «معركة المياه» منشورات «Le monde» ليموند سنة ١٩٩٤: في البدء كانت المياه. يؤكّد ذلك سفر التكوين والعلم. وإنّ الحياة بدأت على الأرض بفضل المياه، هذه الأمّ المعطاء العالميّة.

وهكذا، فمذ رأى العالم النور، حاول الانسان أن يجد المياه. وتاريخ الحضارة هو تاريخ الوسائل القويّة والفعّالة التي مكّنت الانسان من وضع المياه في خدمته، وفي خدمة المجتمع. ولذلك، نرى أنّه من أوْلى واجباتنا أن نحترم هذه الثروة، وأن نوفّرها لجميع الكائنات، وأن نعرف كيف نحسن إدارتها، بخاصّة أنّها أصبحت مسألة من المسائل العالميّة الشائكة. والمشكلة المطروحة: هل في إمكاننا أن نتحمّل عبء مسؤوليّة تلقي بكاهلها على مستقبل الانسانيّة كلّها؟ وهل في إمكاننا أن نتحمّل مسؤوليّة توفيرها بكميّات كافية، نظراً لازدياد الطلب عليها والمحافظة على سلامتها ونظافتها، ونظراً لأهميّتها في جميع القطاعات؟ وعلى هذا الأساس، يلاحظ الباحث، في جميع البلدان المتطوّرة اقتصاديّاً وتقنيّاً، أنّه من الضرورة بمكان إيجاد سياسة حكيمة وواعية، هدفها الأساس إنقاذ المصادر الطبيعيّة، وتوفير هذه المياه إلى المدن والجماعات.

وإذا كانت المياه مصدراً للحياة، فإنّ احترامها أصبح مسألة عالميّة. وكلّ

تغيير يتناول هذه المصادر الطبيعيّة، إنْ من حيث الكميّة أو النوعيّة، من شأنه أن يلحق أفدح الأضرار بالمجموعات البشريّة، وأن يستتبع الأمراض والموت.

وفي القرن المقبل، إنّ مصادر المياه ستصبح نادرة، إلاّ أنّها ستكون ضروريّة. وانطلاقاً من هذه النظرة: هل من الواجب، كما يقول الباحث جان بول بيسيت (Jean-Paul Besset)، (في جريدة Le monde تاريخ ٢٨ آذار ١٩٩٧)، أن أوفّر جهازاً عالميّاً لتوزيع المياه، وللسهر على سلامتها، بحيث يصبح إيجاد الشريك العالميّ للمياه هدفاً من أهداف الأمم المتّحدة.

إنّ أهميّة المياه المتعاظمة، يوماً بعد يوم، تطرح أكثر من سؤال على الباحث وعلى القضاء وعلى المشترع. هذا السؤال يتعلّق بكيفيّة المحافظة عليها، لأنّه من الصعوبة بمكان، كما يقول Jean Lamarque في مقدّمة كتابه:

«Droit de la protection de la nature et de l'environnement L.G.D.J. 1937»

«أن نجد وصفاً واقعيّاً لجرح حضارتنا الصناعيّة، أو تصوّراً للأخطار المحدقة بالانسانيّة؛ إذ إنّ تلوّث المياه والهواء مرض كبير غير قابل للشفاء». وفي نظرنا أنّ ما نعاني منه من تلوّث ومشاكل بيئيّة، ليس بسبب القضاء والقدر، وإنّما سببُ هذه المشاكل هو الانسان. وفي رأينا أنّ مشكلة معالجة التلوّث هي سياسيّة. وإنّنا نتطرّق إليها بالعبارات إيّاها – مهما كانت المواقف الايديولوجيّة والأنظمة والحكومات – وبخاصّة في ظلّ التعبير عن الارادات والنوايا، لذا فإنّ مشكلة التلوّث تبقى قائمة. وإنّ السياسة الحاليّة، وإن كانت تجيد التعبير عن الأهداف التي تريد تحقيقها، إلاّ أنّ هذه السياسة تقف عاجزة أمام الوسائل المطلوب استعمالها. فأهمّ المشاكل هو الوضع الماليّ، الذي لو كان طبيعيّاً لسمح باتّخاذ كافّة التدابير للمحافظة على الموارد الطبيعيّة ولمحاربة التلوّث، فضلاً عن عدم وجود أيّ توجّه فكريّ لدرس هذه المشاكل بالعمق ومحاولة إيجاد الحلول المناسبة.

المبحث الثاني: النصوص التشريعيّة في لبنان التي ترعى التلوّث وسلامة المياه

لمحة عن موقف المشترع الفرنسيّ

يلاحظ الباحث، في الخمسين سنة المنصرمة، أنّ استهلاك المياه من جهة، وتلوّثها من جهة أخرى، اتّخذا حجماً كبيراً كان لا يمكن تصوّره في القرن السابق، وبخاصّة تحت تأثير العوامل الآتية:

١- التطوّر الصناعيّ الكبير.

٢- اتساع الأراضي الزراعيّة، وازدياد حجم الأراضي المرويّة.

٣- ازدياد حجم الاستهلاك الانسانيّ، تبعاً للامتداد الديموغرافيّ وارتفاع مستوى الحياة وزيادة المتطلّبات واتساع حجم المدن.

هذا الأمر كان وراء مشكلة كبيرة وحادّة ومتفجّرة، كان من الطبيعيّ والمنطقيّ أن يتطرّق إليها المشترع المحلّيّ والدوليّ.

وإنّ الدراسات أظهرت أنّه من الضرورة بمكان أن تتّجه جميع البلدان، وبخاصّة الصناعيّة منها، إلى تبنّي سياسة جديدة، قوامُها حماية مصادر مياه الشفة، ومنع السرقة والغشّ، ومنع كلّ ما شأنه أن يلوّثها. هذا التوجّه أعطى ثماره في فرنسا، حيث صدرت عدّة قوانين تعالج هذه المسألة، وأهمّها في ١٦ كانون الأوّل سنة ١٩٦٤، حيث تمّت المصادقة على قانون يتعلّق بتوزيع المياه وبمكافحة التلوّث. وقد أعطى هذا القانون نتائج لا بأس بها بفضل التدابير التطبيقيّة المتّخذة من الدوائر صاحبة الاختصاص.

ما هو وضعنا التشريعيّ في لبنان؟

صدرت في لبنان عدّة قوانين، أهمّها:

أوّلاً: مرحلة القرارين ١٤٤/س و٣٢٠

في هذه المرحلة، صدر قراران هامّان يرعيان المياه: الأوّل هو القرار رقم ١٤٤ تاريخ ١٠ حزيران ١٩٢٥، المعدّل بالقرار رقم ١١ تاريخ ١٣ كانون الثاني سنة ١٩٤٠، والمتعلّق بتحديد الأملاك العموميّة وأشغالها الذي اعتبر المياه من الأملاك العامّة، والثاني القرار رقم ٣٢٠ الصادر في ١٩٢٦/٥/٢٦ بشأن المحافظة على مياه الأملاك العموميّة واستعمالها. وهذا القرار

الأخير، أي القرار رقم ٣٢٠، نصّ في مادّته الأولى على أن يمنع، قبل الحصول على ترخيص من الإدارة المختّصة، القيام بأشغال تتعلّق بالتّنقيب عن المياه الموجودة تحت الأرض، أو المتفجّرة وبضبطها. والمقصود بذلك مراقبة الكميّة التي تخرج، وما إذا كان المقصود من التنقيب تلويث المياه الجوفيّة.

هذا القرار عينه نصّ، في المادّة الثانية منه، في الفقرة الثانية، على أنّه يمنع أن يمرّ ويجري في مياه الأملاك العموميّة، الممنوح بها امتياز أو التي بدون امتياز، أو يراق أو يلقى فيها ماء أو موادّ تضرّ في الحالة الصحيّة أو بالراحة العموميّة أو بحسن استعمال هذه المياه.

أمّا الفقرة الثالثة من هذه المادّة فنصّت على أنّه يمنع إلقاء أسمدة حيوانيّة في الأراضي الداخلة ضمن منطقة الحماية لعين ماء تستعمل للحاجات العموميّة، وإحداث مستودعات للأقذار، وعلى العموم إجراء أيّ عمل كان من شأنه أن يدنّسَ تلك العين؛ وإنّ حدود منطقة الحماية في كلّ حال من الأحوال تعيّن بموجب أمر من رئيس الدولة أو من السلطة التي يُنيبها لهذه الغاية.

وفي المادّة ١٣ من هذا القرار، رأى مشترع هذا القرار أنّه إذا أعطي امتياز باستعمال المياه العامّة فيتوجّب على صاحب الامتياز أن يبيّن في دفتر الشروط التدابير الواجب اتخاذها للحماية من طغيان المياه أو المحافظة على الصحّة العموميّة.

وفي المادّتين ٢٥ و٢٦ من هذا القرار، حدّد المشترع، بموجب قرار من رئيس الدولة، عرض الأرض التابعة لقساطل أو قناطر الماء المعدّة لشرب الأهالي، والتي يجب أن تخصّص لها من كلّ جهة. كما منع المشترع نفسه، من دون رخصة خصوصيّة، غرس الأشجار بين حدود الأرض التابعة لمجاري المياه.

أمّا بالنسبة للجمعيّات النقابيّة للمياه، فقد أجاز المشترع للملاّكين، في المادّة ٣٠ من هذا القرار، تأليف هذه الجمعيّات لاجراء أشغال، الهدف منها حفظ المياه واستعمالها. ومن هذه الأشغال:

– الاحتراز من مجاري المياه الموقّتة أو الدائمة، وبنوع عامّ من المياه المضرّة.

– تنظيف مجاري المياه الموقّتة أو الدائمة وتعميقها وتقويمها وتعديلها.

– تجفيف الأراضي الرطبة والمضرّة بالصحّة، وإصلاح مناخها، ونزع الأملاح منها، وتصريف مياهها.

– سدّ مسارب المستنقعات وردمها.

ثانياً: المرسوم رقم ٢٧٦١ الصادر في ١٩ كانون الأوّل سنة ١٩٣٣ الذي يرعى تصريف المياه المبتذلة والموادّ القذرة

نصّ هذا المرسوم، في مادّتيه الخامسة والسادسة، على أنّه لا يجوز جمع المياه والمياه المبتذلة، ولا تصريفها، ولا تفريغها مباشرة أو بطريقة غير مباشرة، في نطاق حرم مياه الشرب العموميّة ولا في الأرض ولا في المغاور الطبيعيّة أو الاصطناعيّة ولا في الآبار أو الصهاريج، إلاّ بعد اتخاذ التدابير اللازمة لمنع تلويث المياه الجارية تحت الأرض. ولا يجوز أن ترمى أو تصبّ أو تسيل، مباشرة أو بطريقة غير مباشرة، في مجاري المياه ولا في الغدران ولا في البحر، أيّة مادّة من شأنها أن تضرّ بصيانة المياه أو بجريانها أو بسلامتها أو باستعمالها للخدمة أو لشرب الحيوانات أو للزراعة أو للصناعة أو لتربية الأسماك أو لحفظها.

ثالثاً: المرسوم الاشتراعيّ رقم NI/٧٢٧ الصادر في ١ تشرين الأوّل سنة ١٩٤٢ المتعلّق بمشاريع جرّ مياه الشرب

هذا المرسوم تضمّن أحكاماً عديدة تهدف إلى المحافظة على سلامة مياه الشفة. من هذه الأحكام نذكر، على سبيل المثال، المادّة الأولى منه التي أكّدت أمراً على قدر كبير من الأهميّة وهو الآتي: من غير الجائز، ابتداءً من تاريخ هذا المرسوم، أن تتخذ لمشروع ماء معدّ لشرب العموم سوى المياه التي يوافق مسبقاً وزير الصحّة العامة، بناءً على تصريح مقدّم من صاحب المشروع. وهذا التصريح يجب أن يستند إلى درس جيولوجيّ وتحاليل طبيعيّة وكيمائيّة وبكتريولوجيّة. وبنتيجة هذا الدرس، يرفع تقرير إلى وزير الصحّة العامّة، تعيّن فيه منطقة حرم النبع المعدّ لاستعمال العموم، وللتدابير التي يجب اتّخاذها داخل منطقة الحرم المحيطة بالنبع، وأنّ التحاليل الطبيعيّة والكيماويّة

والبكتوريولوجيّة يجب أن تحصل في مختبرات الدولة. وللّجنة الصحيّة إيقاف الأعمال، إذا كانت لا تأتلف مع الأحوال الصحيّة العامّة. ولوزير الصحّة العامة أن يفرض، من تلقاء نفسه، التدابير اللازمة لاصلاح المياه، وذلك منعاً لأيّ تلوّث يلحق بها.

رابعاً: القانون الصادر بمرسوم، المرسوم اشتراعيّ رقم ١٦ تاريخ ١٩٣٢/٦/٣٠، وعنوانه القواعد الصحيّة العامّة

أشار هذا القانون في المادّة ٦ إلى التدابير التي يمكن اتخاذها لتموين السكّان بمياه الشفة، بشرط أن تكون صالحة وغير ضارّة بالصحّة العامّة.

وتضمّن هذا القانون، في المادّة ١٤ منه، أحكاماً تتعلّق بالموجب الملقى على عاتق الادارات العامّة لتوفير مياه الشرب، لكلّ مجموعة سكنيّة، وأن تكون هذه المياه صالحة للشرب.

ونصّ هذا القانون، في مادّته الثامنة عشرة على وجوب وجود، لدى كلّ بئر أو عين ماء تستعمل لشرب الأهلين، منطقة حرام تُعيّن حدودها بأمر من رئيس الدولة. تضيف هذه المادّة فتقول: كلّ بناية أو بئر أو حفرة أو غيرها من الأعمال الأخرى التي من شأنها أن تدنّس ماء الشرب يمنع إنشاؤها في منطقة الحرام.

خامساً: مرسوم رقم ١٠٢٧٦ صادر في ٧ آب ١٩٦٢ تحديد منطقة حرم الينابيع

وفقاً لهذا المرسوم يحدّد حرم الينابيع بموجب مرسوم يتّخذ في مجلس الوزراء بناء على اقتراح لجنة قوامها ممثّل عن وزارة الصحّة العامّة، ممثّل عن وزارة الأشغال العامّة، ممثّل عن وزارة الموارد المائيّة، ممثّل عن وزارة الصحّة العامّة. وكلّفت المديريّة العامّة للتجهير المائيّ في المادّة ٥ من المرسوم رقم ٧٠٠٧ تاريخ ١٩٦٧/٣/٣٠ بتحضير جميع الخرائط والمقاطع اللازمة للينابيع موضوع الدراسة، بما فيها المقاطع الجيولوجيّة وتقديم مقترحاتها بشأن تحديد الحرم. هذا المرسوم ألغى المرسوم السابق الصادر سنة ١٩٣٢.

سادساً: قرار رقم ٦٧ صادر في ١٤ شباط ١٩٧٢ يرعى تحديد الفحص الجرثومي للمياه

هذا القرار يحدّد الأصول الفنيّة التي يجب احترامها لفحص المياه، وتبيان ما إذا كانت صالحة للشرب وخالية من الجراثيم.

سابعاً: مشروع قانون صادر بمرسوم رقم ٨٧٣٥ تاريخ ١٩٧٤/٨/٢٣، المحافظة على الصحة العامة

نصّ هذا القانون في المادّة ٣ منه على أنّه يمنع تفريغ مياه الحفر الصحيّة والمياه المبتذلة ضمن مجاري المياه أو ضمن حرم الينابيع والأنهار.

ثامناً: قانون صادر بمرسوم، المرسوم الاشتراعيّ رقم ١٠٨ تاريخ ١٦ أيلول سنة ١٩٨٣، تنظيم استثمار المياه والمرطّبات والمعبّأة في أوعية

نصّ هذا الأخير على أنّ كلّ مياه معدّة للشرب يجب أن تكون خالية من الجراثيم والطفيليّات المرضيّة ومن أيّ طعم أو رائحة... الخ.

* على سبيل المثال، صدرت قرارات عديدة أنشأت منطقة حرم بجوار نبع العسل في جبل فاريا، وقرارات أخرى لحماية المياه الجوفيّة في جبل الكنيسة... الخ.

تاسعاً: في إطار قانون البلديّات

قانون صادر بمرسوم – مرسوم رقم ٨٧٣٥ صادر في ١٩٧٤/٥/٢٣، المحافظة على النظافة العامّة. نقرأ ما جاء في المادّتين الأولى والثالثة:

المادّة الأولى: يمنع في الشوارع والساحات العامّة وملحقاتها وجوانبها وأقنيتها حتى حدود التراجع القانونيّ وفي مجاري المياه وضفافها وعلى الأملاك العامّة البحريّة والأراضي المشاعيّة للقرى طرح أنقاض المباني وأتربة الحفريّات والحجارة.. الخ.

المادّة الثالثة: يمنع تفريغ مياه الحفر الصحيّة والمياه المبتذلة خارج المنازل والمحلاّت والمؤسّسات الصناعيّة ضمن مجاري المياه أو على شاطئ البحر أو ضمن حرم الينابيع والأنهار... الخ. ويمنع حفر آبار ذات غور مفقود بقصد تصريف المياه المبتذلة فيها، ويتوجّب على مالك البئر المحفورة سابقاً القيام بردمها خلال شهر واحد من تاريخ نشر هذا القانون.

عاشراً

وبالرجوع إلى قانون الملكيّة العقاريّة القرار رقم ٣٣٣٩ الصادر في ١٩٣٠/١١/١٢، فإنّ المادّة ٦٠ تلزم صاحب الأراضي الوطيئة بتلقّي مياه الأرض التّي تعلوها والتي تسيل سيلاً طبيعيّاً، وأنّ هذه الأحكام تطبّق على مياه العيون التابعة في عقار ما، إلاّ أنه إذا كانت هذه المياه ملوّثة بسبب استعمالها في الصناعة بحيث لا يمكن الانتفاع بها في المنازل وفي ريّ المزروعات، فإنّ مالك الأرض العليا ليس باستطاعته أن يلزم صاحب الأرض الوطيئة بتلقّي هذه المياه.

أحد عشر: ومن الناحية الجزائيّة

ونبدأ بالقرار ٣٢٠ تاريخ ١٩٢٦/٥/٢٦ حيث نصّت المادّة ٥٨ منه على أنّ من يخالف أحكامه فيلوّث المياه ويدنّسها ويمنع جريانها الحرّ وفقاً لما جاء في المادّة الأولى منه وغيرها يسجن ويغرّم. وفي حال التكرار، فإنّ المخالف يحكم بالعقوبة القصوى.

أمّا المادّة ٤٦ من المرسوم الاشتراعيّ رقم ٦ الصادر في ١٩٣٢/٦/٣٠، وعنوانه القواعد الصحيّة العامّة، فقد نصّت على أن من يرتكب مخالفة لأحكام موادّه فيعاقب بالحبس وبالغرامة. وإذا تكرّرت المخالفة في خلال سنتين، تضاعف عقوبة الحبس والجزاء النقديّ.

وفي قانون العقوبات، وإن اقتصر عدد المواد التي تعالج الجرائم المتعلّقة بنظام المياه على خمس، وهي الموادّ ٧٤٥ منه حتّى ٧٤٩ ضمناً، فإنّ المادّة ٧٤٥ تعاقب بالحبس وبالغرامة كلّ من أقدم، وبدون رخصة، على القيام بأعمال التنقيب عن المياه الكائنة تحت الأرض أو المتفجّرة أو على حصرها، ما لم يكن المقصود حفر آبار غير متفجّرة في الأملاك الخاصّة لا يتجاوز عمقها مائة وخمسين متراً. وإنّ الفقرات التالية تعدّد المخالفات المذكورة في القرار رقم ٣٢٠، وبخاصّة الفقرة السادسة التي نصّت على وجوب معاقبة كلّ من منع جري المياه العامّة جرياً حرّاً أو قطع مياه الشرب عن المستفيدين. أمّا المادّة ٧٤٦ فتعاقب بالغرامة كلّ من أقدم من دون رخصة على تنظيف مجاري المياه الموقتة أو الدائمة أو تعميقها أو تقويمها أو تنظيفها. ويلاحظ أنّ المشترع عدّل خلال العام ١٩٨٣ أحكام المادّة ٧٤٧ عقوبات، بحيث يعاقب كلّ من يهدم الانشاءات المشيّدة للانتفاع بالمياه العامّة أو لحفظها. كما تعاقب هذه المادّة كلّ من يتعدّى على مصادر مياه مشاريع الريّ.

ويشدّد المشترع على سلامة المياه، فتنصّ المادّة ٧٤٨ من قانون العقوبات ذاته على معاقبة كلّ من

شيّد في المياه العموميّة أو سكب أو رمى فيها سوائل أو موادّ ضارّة بالصحّة العامّة، أو تمنع حسن الانتفاع بهذه المياه، أو ألقى أسمدة حيوانيّة، أو وضع أقذاراً في الأراضي الداخلة ضمن النطاق الذي حدّدته السلطة لحماية نبع تنتفع منه العامّة، أو أجرى أي عمل من شأنه تلويث النبع أو المياه التي يشرب منها الغير. وأخيراً، فإنّ المادّة ٧٤٩ منه نصّت على أنّ كلّ من أقدم قصداً على تلويث نبع أو ماء يشرب منه الغير، يعاقب بالحبس من سنة إلى ثلاث سنوات، وبغرامة من خمسين ألف إلى ستمائة ألف ليرة لبنانيّة.

نضيف فنقول إنّ المادّة ٢٣ من قانون الصحّة العامّة الصادر سنة ١٩٧٤ نصّت على معاقبة سائق الصهريج الذي يضبط بمخالفة تفريغ مياه الحفر الصحّيّة أو المياه المبتذلة بالسجن من شهر إلى شهرين ويحجز الصّهريج. ويعتبر مالك البناء متضامناً مع السائق في دفع الغرامة. كما تعاقب هذه المادّة بالسجن المالك أو المستثمر الذي يحفر بئراً ذات غور مفقود لتصريف المياه المبتذلة.

المبحث الثالث: موقف الاجتهاد على الصّعيد المدنيّ والجزائيّ والاداريّ

أوّلاً: على صعيد الاجتهاد المدنيّ

إنّ التّشريعات المبيّنة أعلاه، والّتي تعتبر قوانين وضعيّة الزاميّة والّتي من شأنها تجنّب التلوّث والمحافظة على سلامة المياه، استندت إليها المحاكم العدليّة وقضت بعدم سماحها للمالك الأعلى بتلويث المياه الجوفيّة بالاستناد إلى المبادئ العامّة للمسؤوليّة المنصوص عليها في المادّة ١٢٢ أو ما يليها من قانون الموجبات وعقود أو المادّة ١٣٨٢ قانون مدنيّ فرنسيّ، لا سيّما إذا نجم عن فعله هذا ضرر لجيرانه. وهذا الاجتهاد مستقرّ وثابت. هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإنّ اجتهاد المحاكم العدليّة قضى على المالك الذي يسيء استعمال حقّه ويقدم على قطع أوصال النبع المتفجّر في أرض جاره، ولا سيّما إذا أقدم على ذلك بنيّة الحاق الضرر به ليس إلاّ، بتعويض، وألزمه باعادة الأمور إلى ما كانت عليه قبل الاقدام على فعله هذا.

ثانياً: على الصعيد الجزائيّ

إنّ المحاكم، ولا سيّما محكمة التمييز الجزائيّة في فرنسا، تعتبر وتؤكّد أنّ كلّ سكب لموادّ تؤثّر على سلامة المياه يقع تحت طائلة القانون الجزائيّ، ولا فرق إن حصل هذا السكب بصورة مباشرة أم غير مباشرة أو حصل في مجرى ماء أو في بركة أو في بحيرة أو مستنقع. إذ تكفي أن تتوفّر عناصر الجرم بحقّ المخالف الماديّة والمعنويّة، وأن يتولّد عن ذلك ضرر، لكي يعاقب الفاعل.

يراجع بهذا المعنى: الاجتهادات التي يذكرها جان لامارك Lamarque Jean في مؤلّفه المنوّه عنه اعلاه ص ٧٨١ وما يليها.

ثالثاً: على صعيد الاجتهاد الاداريّ

إنّ المحاكم الاداريّة قضت على عدد من البلديّات بدفع تعويض لصالح مالكي الينابيع، لأنّ مياهها المبتذلة لوّثت الينابيع والآبار العائدة لهؤلاء الأشخاص.

والاجتهاد في كلّ من فرنسا ولبنان، ولا سيّما الاجتهاد الاداريّ الذي أصبح ثابتاً ومستقرّاً، قضى بالتعويض عن الأضرار الناشئة عن قطع أوصال المياه الجوفيّة أو بتلويث هذه المياه بنتيجة أشغال وحفريّات قامت بها الادارات العامّة، وذلك في إطار الأضرار الناشئة عن الأشغال العامّة.

والأمثلة على الاجتهادات المذكورة كثيرة، ولا مجال لذكرها الآن.

بهذا المعنى: يراجع كتاب اجتهادات مجلس شورى الدولة. الرئيس د. أنطوان بارود.

الخاتمة:

من مجمل هذه الأحكام، يستنتج الباحث أنّ هدف المشترع الأساس هو مكافحة التلوّث والسهر على سلامة المياه وتوفير المصادر وعدم التعرّض لها وتوزيعها بشكل عادل، وفقاً لحاجيّات وامكانيّات كلّ منطقة. وعندما نتحدّث عن سلامة المياه فالمقصود توفيرها لكلّ محتاج والمحافظة عليها نقيّة صافيّة صالحة للاستعمال المعدّ لها سواء للشفة أو في الزراعة أو في الصناعة. وما يؤذي سلامة المياه هو التلوّث الناشئ عن تعرّض المياه لبعض الأمور الضارّة. ولمكافحة هذا التلوّث، لا مفرّ من نشر شبكة قويّة واقيّة وقادرة ورادعة مكوّنة من مجموعة من القوانين والقرارات الصادرة عن الوزارات المختصّة ومصالح المياه والبلديّات دون أن يكون من شأن ذلك أن يغيّر في نظام المياه أو أن يتعرّض لمسألة ملكيّة المياه. وهكذا، فتدابير الوقاية التي توفّرها القوانين التي أشرنا إليها أعلاه تهدف إذاً إلى حماية المياه من حيث الكميّة والنوعيّة. وإذا كانت الأرض في السابق تبتلع عيوب العالم ولم يكن للنهر أيّ دور، فإنّه مع التطوّر التكنولوجيّ والتطوّر الديموغرافيّ، أصبح التلوّث لعنة التقدّم. ولذلك، على القرن الحاليّ أن يواجه تحدّيات كبيرة، أقلّها انتشار الأوبئة والموادّ الضارّة في المياه وغيرها – وفقاً لأقوال رينه كولاس René Colas في كتابه «La pollution des eaux» منشورات P.U.F..

إلاّ أنّ ما يستوقفنا في هذا الشأن هو النصوص القانونيّة التي ترعى المياه. فهي مبعثرة هنا وهناك. وان وضعاً كهذا ليس من شأنه تسهيل الأمور لا على المشترع ولا على الباحث ولا على القاضي الذي يريد أن يحكم في قضيّة ما. لأنّه غالباً ما ينعكس هذا التشتّت على المشترع، فيوافق على تشريع متناقض مع تشريع سابق، وعلى القاضي الذي يجد نفسه تائهاً بين مجموعة من النصوص القانونيّة المبعثرة هنا وهنالك دون وجود أيّ دليل واضح عليها، وبخاصّة في ظلّ عدم وجود فقه ومؤلّفات تشرح هذه النصوص وتبيّن مضمونها وأبعادها. هذه الصعوبة تظهر جليّة لدى كلّ من كتب في هذا المضمار، بالرّغم من أهميّة ودور المياه في هذا الألف الثالث. ولذلك، نرانا بحاجة إلى إطلاق صرخة من الأعماق إلى جميع المسؤولين والمعنيّين بالأمر للعمل على جمع هذه التشريعات في قانون واحد، كما هي الحال بالنّسبة لقانون الموجبات والعقود وقانون التجارة وقانون العقوبات. وبنظرنا هذا الأمر يعود النظر فيه إلى هيئة تحديث القوانين في مجلس النّواب وإلى وزارة المياه والطّاقة، هذا من جهة.

ومن جهة ثانية، لا مفرّ من إيجاد – كما هي الحال في الدول المتطوّرة – من إيجاد وزارة للبيئة ذات فعاليّة قويّة ونيابة عامّة بيئيّة متفرّغة، إذا أردنا أن نحافظ على لبناننا الأخضر وأن يوضع بتصرّف هذه النيابة جهاز متكامل من قوى الأمن لقمع المخالفات وملاحقة المخالفين وإحالتهم أمام المحاكم لإدانتهم وإنزال العقوبات الصارمة بحقّهم على اعتبار أنّ فعلهم عندما يتعرّضون لسلامة المياه يقع تحت طائلة القانون الجزائيّ بحيث يعتبر المخالف مسؤول جزائيّاً. وما يستوقفنا في هذا المجال هو العدل القليل جداً من الملاحقات والأحكام.

وإذا لم تحصل الملاحقة الجزائيّة، فمن الضرورة بمكان أن يعتبر كلّ مواطن مسؤولاً مدنيّاً عن فعله هذا، إذا لم يتوفّر بحقّه عناصر الجرم الجزائيّ، ويحكم عليه بتعويض لصالح الأشخاص المتضرّرين سواء أكانوا من الأفراد أم أشخاصاً طبيعيّين كالدّولة والبلديّات.

وأخيراً وليس آخراً، لا مفرّ في نظرنا من الادّعاء بوجه الادارات العامّة وتحميلها مسؤوليّة إهمالها وعدم إقدامها على اتّخاذ كافّة التدابير لحماية المياه والمحافظة على سلامتها. وإنّنا نأمل أن يتّخذ مجلس شورى الدولة ومحاكمنا المدنيّة والجزائيّة الأحكام الصّارمة لمنع كلّ مخالف لقوانين المياه، دون تردّد أو خوف؛ فمياهنا ثروة غاليّة. فإذا ما فقدت أو تلوّثت فقدنا كلّ شيء.

١٢ ألف صفحة في ٢٠ مجلّداً: تراث الموازنات العامّة في لبنان

عدنان ضاهر أعاد تكوين تاريخ التشريع الماليّ بين الدستور والواقع

لمجلس النوّاب اللبنانيّ الأستاذ عدنان ضاهر، ويقع في عشرين مجلّداً، من اثني عشر ألف صفحة توثّق التاريخ التشريعيّ الماليّ في لبنان. فهو، يقول الرئيس نبيه برّي، «أوّل مرجع تاريخيّ وقانونيّ وماليّ يؤرّخ لحقبة هامّة من تاريخ لبنان، ويختزن النتاج التشريعيّ في الحقل الماليّ على مدى ثمانين عاماً». ولهذا، «يحتاجه كلّ مسؤول وكلّ باحث وكلّ مهتمّ بعلم الماليّة، وبفهم تطوّر أوضاع لبنان الماليّة والاقتصاديّة والدستوريّة» على ما قال الوزير فؤاد السنيورة.

أمين عام مجلس النوّاب

عدنان محسن ضاهر

- مواليد الغبيري ١٩٤١
- مجاز في الحقوق
- أمين عام مجلس النوّاب اللبنانيّ
- عضو اللجنة التنفيذيّة لجمعيّة الأمناء العامّين للبرلمانات العربيّة
- عضو في جمعيّة الصداقة اليابانيّة اللبنانيّة
- حائز على وسام الاستحقاق الأرجنتينيّ برتبة ضابط أكبر
- صدر له: قوانين الموازنة العامّة في الذاكرة (١٩٢٠-١٩٩٨) - جزءان

ماذا تتضمّن الموسوعة؟

* مناقشات الموازنة العامّة في جميع جلساتها والظروف المحيطة بها، منذ العام ١٩٢٠ حتّى العام ٢٠٠١، ما يعكس حقيقة واقع الحال في كلّ المراحل المبيّنة.

* لمحة عن:

النظم الإداريّة والماليّة في عهد العثمانيين ١٥١٦-١٩١٨.

اللجان الإداريّة والمجالس التمثيليّة ١٩١٩-١٩٢٦.

المجالس النيابيّة اللبنانيّة ١٩٢٧-٢٠٠٠.

* تقارير مقرّري لجان المال والموازنة.

جداول اسميّة برؤساء الجمهوريّة، ورؤساء المجالس النيابيّة ونوّابهم، ورؤساء الحكومات ونوّابهم، ووزراء المال، ورؤساء السنّ، وأصغر النوّاب سنّاً (أمناء سرّ جلسات الانتخاب)، وأمناء السرّ، والمفوّضين، وأعضاء لجنة المال والموازنة؛ وجميعهم بحسب التسلسل الزمنيّ.

* بيان مواقع الخلل في التقيّد بأحكام الدستور وقانون المحاسبة العموميّة فيما يتعلّق بالموازنة العامّة للبلاد، إعداداً وتنفيذاً.

* إبراز الإيجابيّات والسلبيّات ما يشكّل غنىً ليس لأصول الممارسة الديمقراطيّة في لبنان فحسب، بل العبرة المتقدّمة لكلّ الديمقراطيّات في عالمنا العربيّ.

* كيف نشأت فكرة إعداد الموسوعة؟

يقول الأستاذ ضاهر:

عندما انتهيتُ من كتابي الأوّل (قوانين الموازنة العامّة في الذاكرة ١٩٢٠-١٩٩٨)، والذي هو عصارة المناقشات التي كانت تدور في مجلس النّواب، حول كلّ ما يتعلّق بالموازنة حتّى مراحلها الأخيرة، وأعني التصديق (إقرارها في مجلس النوّاب)، رأيت أن يُعاودَ البحث في المناقشات نفسها التي تؤسّس للقانون.

* وحول أهميّة الموسوعة، والمراد منها، يضيف:

أعود هنا إلى ما قاله في المقدّمة الوزير السابق نصري المعلوف: «إنّ هذا الأثر الأكاديميّ الجليل، هو حلم كلّ سياسيّ وكلّ حاكم أو محكوم، كلّ مؤرّخ أو مؤلّف أو قانونيّ، وكلّ كاتب أو صحافيّ، وحلم كلّ معلّم أو متعلّم أو طالب علم ومعرفة، طلبةُ كلّ من احتاج إلى مطلب خاصّ بهذه العناوين».. ولن أزيد لمهمّتين.

إلاّ أنّه معدّ، بشكل أساسيّ، ليكون مرجعاً لمهمّتين في السياسة والاقتصاد... فهو إضافة مادّة أساسيّة تغني مكتبة مجلس النوّاب.. ومن يهتمّ. وقد اعتبر رئيس ديوان المحاسبة السابق القاضي عبدالله ناصر أن من شأنه أن يغني المكتبة العربيّة...

الكتاب يكتب تاريخاً من دون مواربة ولا خفايا، ومن دون تدوير للزوايا. إنّه يكشف حقيقة الحكم والحكّام ومصير المحكومين، ويعرّف بالانجازات، ويفضح النواقص، ويضع أمام القارئ كلّ حيثيّات الحكم على من تعاقبوا في حكم البلاد..

* كيف كان الإعداد للموسوعة؟

بتشجيع من دولة الرئيس نبيه برّي. فمنذ أربع

سنوات، وأنا أسعى لجمع مادّة الكتاب، من مصادر مختلفة، أستطيع أن أؤكّد أنّها موثوقة، باعتبار أنّ الأحداث، منذ العام ١٩٧٥، قضت على دار الكتب الوطنيّة، فأتلفت الكتب والمحفوظات والمخطوطات والمحاضر. ثمّ جاء الاجتياح الاسرائيليّ عام ١٩٨٢، حيث وصلت القوّات الغازية إلى مقرّ مجلس النوّاب الموقّت في قصر منصور، لتمعنَ يد الإجرام تخريباً وتدميراً لكلّ ما هو مكتوب أو مخطوط أو مطبوع في هذا المقرّ؛ فكانت كارثة حقيقيّة، نزلت في تراث البرلمان اللبنانيّ، قضت على الوثائق والمستندات والمحاضر التي تؤرّخ وتوثّق أعمال السلطة التشريعيّة منذ العام ١٩٢٠ ولغاية ١٩٨٢.

عمليّاً، الفكرة نشأت قبل سنوات.. وإنجازها استغرق أكثر من أربع سنوات، فكان هذا المؤلّف.

*** إذاً، واجهتك متاعب الاستقصاء والجمع؟!**

أعود هنا إلى ما قاله شاعر الفُرس الأكبر الفردوسيّ: «على الشاعر والكاتب والفنّان أن يعرق، ولكن عليه أن لا يدع الآخرين يشمّون رائحة عرقه».. وفي كلّ حال، لا بدّ لي من أن أتوجّه بكبير الشكر إلى جنود مجهولين، ساهموا معي في عمليّة البحث عن المصادر.

*** هل أنت واثق من المعلومات تماماً؟**

المعلومات أكيدة..

*** هل يمكن القول بوجود أرشيف كامل في لبنان؟**

لو كان هناك من أرشيف كامل.. لما أعددت هذا الكتاب..

*** هل لدى عدنان ضاهر من جديد؟**

بعد أن أنهيت كتابي الأوّل (قوانين الموازنة في الذاكرة) وكتابي الثاني هذا.. يبقى في البال كتاب «فذلكات الموازنة العامّة في الذاكرة ١٩٢٠ – ٢٠٠١» وآمل أن أوفّق في تأمينها كلّها.

*** كيف تعرّف الموازنة؟**

الموازنة، شكلاً، أداة حياة للدولة طوال عام كامل. ولكنّها، أساساً، مرحلة سنويّة من خطّة ماليّة اقتصاديّة تتوخّى الانطلاق إلى أبعد، والتوجيه إلى أفضل.

أمّا الأرقام التي ينحصر همّها في إعطاء الدولة خبزها كفاية عامها، فلا تعتبر موازنة ماليّة لدولة راقية إلاّ بقدر ما يُعتبر شعراً كلُّ كلام موزون مقفّى.

الموازنة التي لا تستهدف غير عام واحد في مراميها البعيدة ولا تتخطّى غير عام واحد (مع المحافظة على مبدأ سنويّة الموازنة، لا يمنع أن تحمل هذه الأخيرة بين طيّاتها خطّة رائدة بعيدة المدى تكون أساساً لترتكز عليه الموازنات القادمة)، إنّما تكون موازنة سطحيّة، شكليّة، جوفاء، ووعاءً فارغاً ينتظر ما يُملأ به.

لبنان وإيران في حوار الثقافات

روح الحدائق والمقاومة

أ. د. أنطوان مسرّه

تنظّم المؤسّسة اللبنانيّة للسلم الأهلي الدائم، بمناسبة إعلان السنة ٢٠٠١ سنةَ حوار الثقافات وانعقاد القمّة الفرنكوفونيّة التاسعة في بيروت في تشرين الأوّل ٢٠٠١، وموضوعها الحوار بين الثقافات، برنامجاً لثلاث سنوات (٢٠٠١ – ٢٠٠٣) حول موضوع: «السلام من خلال الحوار بين الثقافات».

شمل البرنامج في المرحلة الأولى لتنفيذه، بالتعاون مع مركز اللغة الفارسيّة وآدابها في الجامعة اللبنانيّة، زيارةَ مجموعة من ٢٨ هم أعضاء وأصدقاءً المؤسّسة، من جامعيين وإعلاميين وفاعلين في قطاعات مهنيّة خاصّة وعامّة، خمسَ مدن وعدّةَ جامعات ومراكز أبحاث في إيران بين ١٢ و٢٢ نيسان ٢٠٠١.

شارع المجال العام

يتلاشى الادراك النفسيّ للمسافة بين بيروت وطهران، وهما جوّاً على بعد ساعتين ونصف الساعة تقريباً، لدى مشاهدة تصميم الشوارع والحدائق في إيران ولدى الاختلاط بالثقافة المعيوشة المنسجمة مع التراث والتي تحمل هاجس معاصرة أصيلة ومنفتحة على الكونيّة.

الشارع في إيران، خلافاً للعديد من البلدان في المنطقة، هو مجال عامّ بامتياز، تحيطه أشجار وورود وغالباً حدائق حيث يلتقي الناس من كلّ الأعمار والمشارب، يجمعهم نسيج مشترك يشكّل الشارع رمزاً له. لا يصطدم المواطن في الشارع العامّ، في خياراته وقناعاته، بصور رجال سياسة أو يافطات تأكيداً لخضوعه لسلطة أو لدين سائد.

في جامعة طهران – كليّة الآداب

في مركز الدراسات الاستراتيجيّة للشرق الأوسط

الثقافة في إيران هي دعامة الوحدة، كما تظهره الحدائق الشاسعة، حيث تتجاور تماثيل المؤلّفين والشعراء والفنّانين. وشُيّدت نصب تذكاريّة لبُناة الهويّة الوطنيّة الثقافيّة، كالفردوسيّ وحافظ، وهما شاعران فارسيّان وعالميّان في آن.

كيف اهتديت إلى إله الاسلام... والمسيحيّة

في إيران إسلام أصيل ومنفتح على الكونيّة. جامع الامام في أصفهان (١٦١٢-١٦٣٧) هو نموذج للهندسة المعماريّة الصَفَويّة. تولّى هندسةَ الصوت فيه العالم بهاء الدين العامليّ، من جبل عامل في جنوب لبنان. تولّى شرحها بامتياز دليل سياحيّ، بيّن عملياً أفضل نظام صوتيّ من دون تكنولوجيا.

في صحن إحدى قاعات الجامع، وكلُّها مزيّنة، وقف وقفة المصلّي المسلم المؤذّن، بإيمان وحزم وورع، ورنّم بصفاء: اللّه أكبر. انتشر الصوت، واضحاً ونقياً، في كلّ زوايا قاعات الجامع الشاسع كما في كون لامتناه يجمعه ويوحّده اللّه. أجاب دعاءه مجموعةٌ من التلامذة في زيارة تربويّة إلى الجامع برفقة معلّمهم. ارتعش كلّ أعضاء المجموعة اللبنانيين، رجالاً ونساء، مسلمين ومسيحيين، وانهالت دموعهم وهم ساعون لاخفاء هذا التدخّل من دون استئذان في عمق الانسان. قال أحدهم، وقد أتى سائحاً: «اللّه هو حقّاً واحد». وقال آخر: «كم من الحواجز في نفوس البشر!» وقالت سيّدة: «ماذا سنفعل بعد اليوم بمنمّطاتنا الذهنيّة». للمرّة الأولى شعرت، روحيّاً وجسديّاً، بوحدة اللّه وكونيّته. إنّه اهتداء، حميم وعميق وصوفيّ، إلى إله الاسلام الذي هو إله المسيحيّة أيضاً وكلّ الأديان، ليس في عقائدها، بل كما يعيشها المؤمنون.

يمكن أن ندرك مدى التخريب والتشويه الذي أحدثته تيّارات التعصّب باسم الاسلام والتأويلات المجزّأة، والمسمّاة اجتهاديّة، التي تنشر التفرقة. نَقَلَ لنا آية اللّه محمّد علي تسخيري، رئيس منظّمة الثقافة والعلاقات الاسلاميّة والدوليّة، موقفاً لأحد القياديين في بلد شديد «الاسلاميّة»، بعد أن استمع منه إلى حظوظ الحوار المسيحي-الاسلاميّ، فأجابه المستمع: «الحوار هذا؟ إنّه كفر!»

في إيران الاسلاميّة لا يتنكّر الدين لمتصوّفيه. إنّ الدين الذي ينمو، بمعزل عن مرجعيّة كبار شهوده المتصوّفين، يتحوّل إلى مجرّد تنظيم اجتماعيّ ووسيلة تعبئة في التنافس السياسيّ. تعبّر أعمال هنري كوربان Henri Corbin، ومنها كتابه: في إسلام إيران، عن عمق روح إيران، البلد الشديد التقوى حيث لا تسمع في الشارع والجامعات والادارات العامّة صراخاً يُسمّى صلاة.

ولم نسمع في أيّ مكان خطاباً معلّباً ومنمّطاً. الفكر النقديّ هو ميزة المجتمع المنفتح وشرط التقدّم. لم يتردّد الدكتور بوجنوردي، مستشار رئيس الجمهوريّة للاعلام، في إجراء نقد ذاتيّ، قلّما نسمع مثيلاً له من مسؤول رفيع المستوى في المنطقة.

في مركز حوار الأديان مع آية الله تسخيري ونائبه

الحماية من المزايدات

تسعى إيران، التي لا تبعد بعض مناطقها خمسين كيلومتراً عن الطالبان، وفي محيط شرق أوسطيّ حيث تحوّل الدين إلى مجال سائب وملوّث في التنافس السياسيّ، إلى حماية ذاتها من مزايدات إسلام سياسيّ من جيران أو معارضة داخليّة. لكلّ الذين لا يؤثّر فيهم عمق الايمان، هناك مظاهر ملموسة لصدّ المزايدة الطائفيّة. بالمقارنة مع مجتمعات إسلاميّة أخرى، يبرز اهتمام بعدم التعبئة الطائفيّة. تزيّن الورود الشوارع، وليس صور سياسيين أو شعارات دينيّة.

هنا وراء الزجاج، في البيت المتواضع جداً، كان الإمام الخميني يلتقي زوّاره ويقود ثورته

يصف الأمين العامّ لمنظّمة الثقافة والعلاقات الاسلاميّة والدوليّة، محمّد سعيد النُعماني، التغيّرات الكبرى في وضع المرأة والعائلة في تشريع إيران: لا يحقّ للرجل أن يتزوّج امرأة ثانية إلاّ إذا وافقت زوجته الأولى. وكلّ ما يجنيه الزوجان، بعد الزواج، يعتبر ملكاً مشتركاً للزوجين.

منزل آية اللّه الخميني، بجوار طهران، هو سكنٌ أقلُّ من متواضع. يتألّف من أقلّ من غرفتين، من دون سجّادة عجميّة ولا زينة، مع مقعد خشبيّ وفراش قرويّ. تبرز في هذا المنزل، حيث استقبل الخميني كباراً من العالم، روحيّة المقاومة والالتزام، وهما لا ينبعان إلاّ من إيمان عميق، مع كلّ ما يحتويه هذا الالتزام من مخاطر انحراف. في زمن، حيث يتراجع الالتزام في العالم، وبخاصّة بين الجيل الجديد، وتتغلّب المصالح على القيم ويبرز تعطّش إلى المعنى، فإنّ المقاربة القانونيّة الصرف لحقوق الانسان قد تغفل الدوافع للالتزام. يتطلّب الدفاع عن الحريّات روحانيّةً ونضالاً.

في مركز البحث العلميّ والدراسات الاستراتيجيّة الشرق أوسطيّة، قال لنا رئيس تحرير المجلّة الفصليّة Discourse، محمود سَريع القلم: «التربية على الديمقراطيّة لا تعني القول لطفل: ماذا تريد أن تأكل؟ إنّها تقضي بمدّ طاولة الطعام واختيار الطفل ما يرغب فيه». ليست الديمقراطية

تالياً حواراً سائباً، بل تتطلّب حكميّة وقيادة ورؤية ومعالم ومعايير. وتكمن الأولويّة البحثيّة والاستراتيجيّة، بنظره، في تصحيح الصور المتبادلة والمشوّهة. خلال سفره جوّاً من إيران إلى انكلترا ظنّ جاره على مقعد الطائرة أنّه بجانب شخص من الجنسيّة البريطانيّة بسبب طبيعة اللباس واللهجة الانكليزيّة. انتفض الجار من مقعده مستغرباً، عندما علم أنّه بجانب إيرانيّ، لحماً ودماً.

في أحدى الحدائق العامّة.. وما أكثرها وما أوسعها!

عندما تكون السياحة ثقافيّة

يشكّل برنامج «السلام من خلال حوار الثقافات» تطبيقاً عملياً لشروط السياحة الثقافيّة ومضمونها. كانت الزيارات واللقاءات في إيران حمّاماً ثقافياً يخرج منه الزائر، ليس مفعماً بمجرّد معلومات ومشاهد، بل متحوّلاً في صورته للآخر بكلّ ثرائها، وأكثرَ معرفةً لذاته. تبيّن السياحة الثقافيّة طبيعة الثقافة التي هي ثمرة تبادل وشراكة. قال لنا أحد أساتذة جامعة أصفهان، حين نقلنا إليهم إعجابنا بكلّ جمال المدنيّة: «إنّنا نعيد إليكم تراثاً أتى به إلينا علماء وفنّانون وبنّاؤون من جبل عامل في جنوب لبنان». وأجريت نقاشات مثمرة مع رئيس جامعة أصفهان وعميد كليّة اللغات الأجنبية ومدير العلاقات العامّة، الدكتور هوشنغ طالبي والدكتور وحيد والدكتور مهماندروست، حول مجالات التبادل والتعاون.

لا تقتصر السياحة الثقافيّة على زيارة مواقع أثريّة وسياحيّة (في إيران أكثر من مليون ومئة ألف موقع) ومشاركة في احتفالات ثقافيّة؛ إنّها تفاعل وتبادل وتفهّم. كانت هذه المقاربة ممكنة بفضل شروحات البروفسور فكتور الكك، الغنيّة بالشواهد والوقائع التاريخيّة المميّزة والأشعار الملحميّة والمؤثّرة للفردوسي (٩٤٠-١٠٢٠) وحافظ (١٣٢٥-١٣٨٩) وغيرهم. إنّهم رموز ما زالوا أحياء في شخصيّة إيران، البلد الذي لا يتنكّر لماضيه، بل ينطلق منه نحو المستقبل.

جرى نقاش مع رئيس تحرير مجلّة Discourse، الدكتور سريع القلم، حول ضرورة التمييز بين العلاقات الدبلوماسيّة التي ترعاها اعتبارات ظرفيّة ومصالح أمنيّة واستراتيجيّة، والعلاقات الثقافيّة التي تخضع لاعتبارات تتداخل فيها جامعات ومراكز أبحاث وتنظيمات المجتمع المدنيّ. يمكن تالياً التعبير عن تحفّظات تجاه سياسة إقليميّة واستراتيجيّة لدولة ما، من دون أن يؤثّر ذلك سلباً على تمتين التبادل الثقافيّ في سبيل نشر التفاهم بين الشعوب.

تتطلّب السياحة الثقافيّة أشخاصاً يحبّون ما ينقلونه، لأنّ المحبّة هي الطريق الفضلى لفهم الآخر في اختلافه وثرائه.

عطالله: لم نكن ندرك بدقّة التعقيدات التي تحيط بنضالاتنا الغنيّة والصحيّة والحالمة. المطلوب اليوم قراءة نقديّة لتجارب الماضي.

تواصل الـ NDU Spirit اهتمامها بالحركة الطالبيّة في لبنان من خلال ملفّ استقرائيّ استعاديّ استشرافيّ يرتكز إلى الأسئلة العامّة الآتية:

١– كيف نشأت هذه الحركة، وفي أيّ ظرف، وعلى يد أو في كنف من؟

٢– ما كانت مرتكزاتها ومراميها، ومجالات أو حدود قضايا نضالاتها؟

٣– كيف تقاطعت أو تنافرت؟ وما الذي كان يحدث في الحالين وينتج؟

٤– إلى أيّ مدى استطاعت أن تكون مستقطبة أو فاعلة، على مستوى المؤسّسات التربويّة أو مستوى مؤسّسات المجتمع المدنيّ والجمعيّات الأهليّة ودوائر الشأن السياسيّ عموماً؟

٥– ما العوامل التي ساعدت على ازدهارها، أو تسبّبت في إعاقتها؟

٦– وفي الحرب، ما حلّ برفاق الأمس وما نادوا به وعملوا له؟

٧– واليوم، ما الذي يستطيعه هؤلاء، وقد صاروا (عموماً) كلّ في حيّز موقع أو موقف، حيال ما هي عليه الحركة الطالبيّة اليوم؟ وما الذي يقرؤونه في واقعها، ويرونه بالتالي لمستقبلها؟ وما طرق العمل وإمكاناته ووسائله، ولماذا، وكيف، وإلى أيّ مدى؟

– **الياس حنّا عطالله** ٥٤ سنة

– حائز على شهادة الكفاءة في علم النفس

– سياسيّ حتّى سنة ١٩٩٢. واليوم يعمل في السياسة كخيار غير معيشيّ، وفي الزراعة كخيار معيشيّ »غير موفّق«.

– من اهتماماته وهواياته: النشاط السياسيّ – القراءة (الرواية والأبحاث) – الكتابة – سماع الموسيقى (الجاز، الكلاسيكيّة (أحياناً)، أغاني ما بعد الحرب العالميّة الثانية – الصيد البحريّ والبرّيّ – السفر (وقد أصبح بعيد المنال) – سهرات الأصدقاء

٨- لكلّ زمن مشاكله. فبمَ تختلف مشاكل اليوم عن مشاكل الأمس، فنفهم لماذا الحركة الطلاّبية اليوم «مكبوحة» فيما كانت بالأمس «جامحة»؟

٩- لو قدّر لك أن تكون من طلاّب اليوم، فما الذي تفعله على ضوء تجربة الأمس، وهل كنت لتعيد تلك التجربة؟

والـ NDU Spirit تلتقي، في هذا العدد، واحداً من أعلام الحركة الذين خطّوا في سجلاّتها مواقفَ انضوت تحت لواء نضالات اليسار، ليس في سبيل قضايا لبنانيّة فحسب، بل نصرةً لقضايا عربيّة وأخرى مرتبطة بسياقات «أمميّة».

ماذا يقول الأستاذ الياس عطاالله اليوم؟

١- لم تنشأ الحركة الطالبيّة في لحظة معيّنة؛ وإنّما، في عمليّة تراكم، دخلت مرحلة نوعيّة في أواسط الستينات، وتطوّرت تدريجيّاً إلى أن عرفت مرحلتها الذهبيّة مع تأسيس الاتّحاد الوطنيّ لطلاّب الجامعة اللبنانيّة. فالحركة إذاً نشأت في ظروف وطنيّة وعربيّة ودوليّة متقاطعة، ومتفاعلة ما بين مستوياتها.

في الواقع الوطنيّ، شهدت الحركة السياسيّة، في أواسط الستّينات وأواخرها، حالةً من النقديّة وتطوّر الفكر النقديّ، وحالةً من الرفض السائد خصوصاً بعد هزيمة ١٩٦٧، ومن تنامي دور الأحزاب في لبنان يساريّةً ويمينيّةً، وولادة أجيال ترغب في التغيير بدءاً من الجامعة اللبنانيّة وفي التواصل والترابط مع المستويات الوطنيّة ومختلف جوانب المجتمع المدنيّ، في ظلّ واقع دوليّ شهد ثورة شبابيّة وطالبيّة تمرّدت على السائد، خصوصاً في أوروبا وأميركا، فحاولت أن تنتج أفكاراً تغيّر الواقع المسيطر، واقعَ سيادة قيمة الربح وسيطرة المفاهيم التقليديّة. بمعنى آخر، ثمّة حوادث عالميّة طبعت الحركة الطالبيّة، من مثل حرب الفيتنام والمواجهة الكبيرة التي أيقظت شعور التمرّد عند أجيال بكاملها في العالم الثالث. ولا شكّ أنّه، في ظلّ هذا المناخ، لعبت حركة غيفارا والحركات التحرّريّة في أميركا اللاتينيّة دوراً مميّزاً في إيقاظ الشعور التحرّريَ والنَفَس التغييريّ لدى أجيال الشباب، وخصوصاً ما شكّله غيفارا من رمز إنسانيّ للتفاني والتجرّد من المصلحة الشخصيّة والرفض حتّى للانتماء إلى السلطات والزهد بمنطق السلطة. فبعد الثورة الكوبيّة ونجاحها، لم يرضَ غيفارا أن ينطوي في كوبا، وإنّما انطلق إلى أرض جديدة، ولا سيّما إلى بوليفيا، بهدف مساعدة شعوب أخرى من أجل أن تتمكّن من ا لتحرّر. وبغضّ النظر عن صحّة الموقف أو عدم صحّته، وبغضّ النظر عن المواقف الايدولوجيّة، فإنّي أعتقد أنّ النموذج الذي قدّمه غيفارا شكّل تفانياً وقداسة في الانتماء إلى مصالح الشعوب.

وهو لا يزال إلى اليوم هذا الرمز الذي يلعب قوّة دافعة لرغبة الشعوب في التحرّر من كلّ أنماط السيطرة، وخصوصاً حيث العولمة تصادر حقوق الشعوب الفقيرة والبلدان الصغيرة، والتي لم تستطع إلى الآن أن تنتج مرتكزاتها الاقتصاديّة وتطوّرها العلميّ. هذا النموذج يلعب دوراً مميّزاً مع ضرورة توسيع التفكير حول مفهوم التغيير والديموقراطيّة، ومدى صلاحيّة النمط المعتمد من غيفارا، وهو الرمزيّة لهذه الشخصيّة الأسطوريّة.

وفي هذه الظروف، ولا سيّما التي شهدها العالم العربيّ، انطلقت حركات تحرّريّة عملت على نقض وإعادة تقويم، ليس للأهداف، بل للوسائط والأفكار والمناهج التي اعتمدتها، خصوصاً أنّ معظمها كان ذا طابع عسكريّ.

ومن البديهيّ والطبيعيّ، في ظلّ ما ذكرناه، أن يكون الشباب والطلاّب هم الذين حملوا تلك الأفكار الجديدة ليعبّروا عنها بغير شكل ولون ونوع، متأثّرين بأفكار تحرّريّة وثقافات محدّدة بلغت مداها الأقصى بعد الحرب العالميّة الثانية: أفكار يساريّة، وأفكار وجوديّة، وأفكار تغييريّة، من منابع فكريّة متعدّدة؛ فكانت حركة الشباب في أميركا وأوروبا، وتيّارات موسيقيّة جديدة منها البيتلز. أمّا ثورة الطلاّب في أوروبا، فحاولت أن تطيح تلك الأنماط من السيطرة والسلطات التي لم تستطع أن تعبّر عن الأمل في التغيير وفي نموّ الشعور الديموقراطيّ والفرديّ والحاجة إلى فضاءات من الحريّة الجديدة. تلك السلطات كانت عبئاً على الكائن المتأجّج في

صدور الطلاّب، فنتجت حركة من التعارض الناشط، متزامنةً مع الحركة الطالبيّة اللبنانيّة، والتي ربّما كانت هي الظاهرة الأبرز في التناغم مع ما يجري في العالم، داخل منطقتنا العربيّة.

وأعتقد أنّ الثقافيّ لعب دوراً مميّزاً في بناء الحركة الطالبيّة اللبنانيّة، والتي لم تكن حركة هامشيّة، بل كانت من الحركات الطالبيّة الناضجة بالمقارنة مع ما يجري في العالم. هذه الحركة جرت في ظلّ كنف أفكار وتيّارات، ولم تحصل في كنف أشخاص.

وأشير هنا إلى أنّني أحببت، في هذا السؤال، أن أضيف المناخات العربيّة والعالميّة، مع تأكيدي على ضرورة إعادة تقويمها ونقضها وإنتاج فهم جديد لها، خصوصاً بعد الذي أنتجته تلك المفاهيم، وصولاً إلى العلاقة مع تلك التجارب، من خلافات داخل المجتمع اللبنانيّ. فهي تحتاج إلى عقل نقديّ، سواء لمنطق التبنّي المتحمّس أو المنطق غير المبنيّ على الفكر. نحن في حاجة إلى إعادة إرساء على علاقة تلك المفاهيم بالمستوى الوطنيّ وبالأسس السليمة التي تعزّز السيادة والوحدة الوطنيّة، في إطار التعدّد والاختلاف والتباينات والمعارضة والسلطة، ضمن دولة تسودها الديموقراطيّة، وبعيدة كلّ البعد عن منطق التخوين والاستعداد للمواجهات العنيفة في ما بين مكوّنات المجتمع اللبنانيّ.

٢- ارتكزت على أفكار وثقافات شملت شتّى جوانب الحياة، من السينما إلى السياسة فالشعر، وصولاً إلى الرواية والفلسفة وسواها، والتي تأثّرت بها الحركة الطالبيّة اللبنانيّة، ولم تكن نتاجاً لأفكار تولّدت في الخارج، وإنّما كانت حصيلة تفاعل فعليّ بين أفكار تتولّد في الخارج والداخل، وتتفاعل مع الواقع الوطنيّ، خصوصاً في ظلّ ترد لأداء السلطة، وجامعة وطنيّة متخلّفة، وواقع تعليميّ ومؤسّساتيّ في هذه الجامعة منفصل عن المجتمع ومتطلّبات الوطن والشعب. ففي الجامعة اللبنانيّة وُلدت الحركة الطالبيّة، عبر الاهتمام الحقيقيّ بكيفيّة تطويرها، أكاديميّاً ومناهجَ وهيئةً تعليميّةً وأبنيةً وتجهيزاتٍ تقنيّةً ومكتباتٍ وسينما وقاعاتِ مطالعة وسواها.

ولقد أدركتْ مبكراً أنّ الجامعة ليست جزيرة معزولة ولا حالة مجزوءة، وإنّما هي جزء من مجتمع ووطن، لا تستطيع أن تتطوّر إلاّ بالترافق مع تطوّر شامل يصيب مختلف جوانب الحياة والمؤسّسات في المجتمع. لهذا، كانت الحركة الطالبيّة جزءاً لا يتجزّأ من نضالات مختلفة، على المستوى الوطنيّ، وخصوصاً حيال كلّ ما يتعلّق بالديموقراطيّة والحريّات.

ومن البديهيّ أنّها تفاعلت أوّلاً مع البيئة الجامعيّة الشاملة، عنيتُ الجامعات الخاصّة، ولا سيّما الأميركيّة واليسوعيّة والعربيّة، فنشأت علاقات تضامنيّة فيما بينها. وشمل البعد التعليميّ كذلك الثانويّات في شكل واسع جداً. لقد كانت جزءاً غنيّاً من مكوّنات الواقع الثقافيّ في البلد. طلاّب الجامعة كانوا الجمهور الأهمّ لأنواع الثقافة كافّة. كانوا مقصداً لكلّ منتجي هذه الثقافة في مختلف اتجاهاتها، من رسم ونحت وسينما وشعر ومسرح وسواها.

٣- إنّ المسألة ليست تقاطعاً أو تنافراً، بل مسألة تنوّع وتعدّد منابع فكريّة. ثمّة اختلافات. وهذا شكّل مصدر غنى، خصوصاً حينما تمكّنت الحركة الطالبيّة من أن ترسّخ دعائمها، وهي: الديموقراطيّة، ومبدأ قبول الآخر، والاحتكام للمؤسّسات والانتخابات ولرأي الأكثريّة، ولكلّ مضامين العمل الديموقراطيّ. أصبح تعدّد التيّارات الفكريّة والثقافيّة لدى الطلاّب حالةً مغنية للنضال الطالبيّ. ولم تكن تتسبّب في أيّ توتّر استثنائيّ، وفي أيّ انقطاع، لا بل أنتجت نوعاً من التبادليّة بين سلطة ومعارضة، غير مرّة، في ٥ أو ٦ أعوام من عمر الاتحاد.

٤-٥- تمكّنت الحركة الطالبيّة أوّلاً من أن توقظ الاهتمام، بشكل جدّي، بالقضايا المشار إليها، داخل أوساط طلاّب الجامعة الوطنيّة. قلّة منهم كانت لا تهتم. والأكثرية تحسّ وتدرك وتتلمّس، في نضالات الحركة الطالبيّة، مصلحتها ومستقبلها وأفكارها وأحلامها؛ ولهذا

تحلّقت حول الاتحاد الوطنيّ، بصفته المؤسّسة النقابيّة الممثّلة لإرادة الطلاّب وحركتهم. ولم يقتصر النفوذ واستقطاب القوى الفاعلة على مدى وحدود هذه المؤسّسة، وإنّما تعدّتها إلى سواها؛ إذ نشأت علاقات حواريّة وتضامنيّة وتنسيقيّة بينها وبين الحركة الطالبيّة في الجامعات الخاصّة كلّها. واستطاعت أن تجعل من قضيّة الجامعة اللبنانيّة قضيّة مركزيّة تهمّ كلَّ هؤلاء الطلاّب، ونقطة ارتكاز العمل السياسيّ للطلاّب الجامعيين في لبنان. كانت ساحة الأونيسكو وكافيتريات الجامعة اللبنانيّة هي الأمكنة الذي تتجمّع فيها النخبة الطالبيّة، وتقرّر السياسات كان هناك نوع من الاجماع والاقتناع، عند طلاّب الجامعات الخاصّة، بأنّ القضيّة المركزيّة هي قضيّة الجامعة الوطنيّة، فضلاً عن القضايا المطروحة حول الديموقراطيّة والحريّة وما يتبعها من قضايا وطنيّة وقوميّة وإنسانيّة وسواها. أضف إلى ذلك أنّ الحركة الطالبيّة في الجامعة اللبنانيّة أنشأت علاقات تضامنيّة وتكامليّة مع الطلاّب الثانويين، بصفتهم طلاّب جامعة المستقبل، ممّا خلّق حركة ثانويّة مذهلة استطاعت أن تبني أطراً لقضيّة سُمّيت الرابطات، والتي تطوّرت لتصبح اتحاداً، يبني علاقة فعليّة تكامليّة مع اتحاد الجامعة اللبنانيّة. وعلى ما أذكر، كانوا حوالى ٦٠ رابطة، بما فيها روابط دور المعلّمين المتوسّطة، ولها ممثّلون يتابعون الاجتماعات الدوريّة، بحيث أصبح هناك نوعٌ من هيئة تضمّ الطلاّب والتلامذة كافّة في لبنان يترأّسها الاتّحاد الوطنيّ لطلاّب الجامعة اللبنانيّة، وينشط فيما بينها.

وفي مرحلة متقدّمة، انتقلت دائرة النفوذ والتأثير إلى حدود الأساتذة الثانويين والابتدائيين، خصوصاً بعد تجربة المعلّمين المصروفين في عهد الرئيس سليمان فرنجية. فقد احتضنتهم الحركة، ودافعت عن قضيّتهم وكأنّها قضيّتها؛ فكان تنسيق عالٍ بين الجسم التعليميّ والطالبيّ.

ولعبت الحركة دوراً أساسيّاً في تطوير الكادر التعليميّ وهيئاته، عبر مواصفات جديّة وضعتها وناضلت من أجلها. كما أنّها استطاعت أن تستقطب أفضل الكفاءات. وبعد أن كان ملاك الجامعة اللبنانيّة حكراً على بعض المتنفّذين، أصبح يخضع لمعايير. وفرضت العلاقة الممتازة بين الأساتذة والطلاّب مبدأ مشاركة الطلاّب في إدارة الجامعة، على مستوى مجالس الكليّات ومجلس الجامعة، بنسبة الربع، ما عدا قضايا الامتحانات وبعض المواضيع الحسّاسة.

لقد كان هناك تكاملٌ رائع. وهذا الواقع نشأ بالتدريج. فكان لقرار الجامعة اللبنانيّة الأثر الواسع بين الأساتذة وطلاّب في الجامعات الخاصّة، ما أمّن للحركة الطالبيّة زخماً مميّزاً، كان له وقعه وتأثيره على الحكومات، وفرض عليها أن تقدّم التنازلات وتلبّي المطالب. وقد عمدت هذه الحركة إلى الاضرابات والاعتصامات والمظاهرات الحاشدة جداً. واستقطبت وسائل الاعلام، فتصدّرت الجرائد.

وتمكّنت الحركة أيضاً من أن تكون مجالاً رحباً للمثقّفين في لبنان، ومركزَ نشاطات وإنتاج للثقافة، إضافةً إلى تضامنها مع سائر قطاعات المجتمع من عمّال ومزارعين وسواهم. وممّا تميز به الطلاّب هو هذا المستوى العالي جداً من تحصيل المعرفة، فنتجت منهم نخب مميّزة في شتّى المجالات، لا تزال إلى الآن تلعب دوراً ملحوظاً في الصحافة والشعر والسينما والمسرح وسواها.

إنّ الحركة الطالبيّة، الحالمة والناهضة، في أواسط السبعينات، تأسّست ببراءة، ومن عدم الادراك الدقيق لمكوّنات المجتمع اللبنانيّ كافّة. كما أنّها لم تدرك ما الذي يجري على الصعيد الوطنيّ، وعلاقته بالمحيط العربيّ، وفي ما يختصّ بمشاريع العدوّ الاسرائيليّ تجاه المنطقة ولبنان. لم نكن ندرك بدقّة عالية كلّ هذه التعقيدات التي تحيط بنضالاتنا الغنيّة والصحيّة والحالمة، والتي كنّا نعتقد أنّها ستؤدّي إلى وطن مزدهر يتّسع لكلّ آمال الشباب. وجاءت الحرب لتمحو الأخضر واليابس، وأودت، بين ما أودت به، بالحركات الطالبيّة. الحرب أوجدت انقسامات جديدة في المجتمع، طالت

أسس الديموقراطيّة، ووزّعتها، وشتّتها، وزرعتها في المناطق كافّة. وبصراحة، لم تبدِ الحركة الطالبيّة الممانعة الكافية في مواجهة هذه الحرب. وهذا يثبت أنّها لم تكن شديدة الاستقلال كما يجب. كانت تعيش في بيئة أسلم من البيئات الأخرى في الوطن، ولكنّها لم تكن مقطوعة الجذور عمّا يجري في الوطن، ودون أن تعي المشكلات التي تركت بصمات عدّة اغتالتها، كما الحال في شتّى جوانب الحياة الوطنيّة.

٦- رفاق الأمس، معظمهم انضووا في مجتمعاتهم وخياراتهم الأوسع، بعضهم ربّما كان فاعلاً أو بعضهم أقلّ فعاليّة. ولكنّهم جميعاً، على ما أعتقد، كانوا جزءاً من الحرب الأهليّة التي أتت على الأخضر واليابس. هذا يستأهل وقفة نقديّة واستنتاج دروس. على جيل الشباب اليوم، وعلى الحركات الطالبيّة أن تتعامل بنظرة نقديّة مع التاريخ والتجارب، بما فيها تجربة الحركة الطالبيّة في السبعينات.

ويبقى السؤال، هل الحركة الطالبية ضحيّة أم شريك في الحرب الأهلية؟ أعتقد أنّها، بنسبة عالية، هي ضحيّة. وبنسبة معنيّة، أصبحت، في النهاية، شريكة في الحرب الأهليّة. لهذا السبب، علينا دائماً أن نتعامل بتروٍ مع دروس الماضي.

٧-٨- رغم الانشداد العاطفيّ إلى كلّ من كان مؤثّراً وفاعلاً في الحركة الطالبيّة، من أواسط الستينات إلى أواسط السبعينات، فجلّ ما نستطيع أن نفعله اليوم هو أن نقدّم تجربتنا، ليس بصفتها تجربة زاهية ومضيئة، وهي كانت كذلك، ولكن بجوانبها الأخرى، والتي لم تكن حذرة وناضجة وقادرة على الممانعة، ولم تكن تمتلك الرؤى الكافية لما سوف يطرأ وتحول إليه الظروف في الوطن.

وعلى كلّ الذين عايشوا تلك الحقبة أن يقوّموا تجربتهم، بحلوها ومرّها، لأنّه على أساس تلك الدروس، بايجابيّاتها وسلبيّاتها، تستطيع اليوم الحركة الطالبيّة، الوريثة الشرعيّة لسابقتها، أن تكون قادرة على استحضار ما هو مفيد من الماضي والاستفادة ممّا كان خاطئاً في السابق، خصوصاً وأنّ الحركة تواجه اليوم ظروفاً صعبة ومعقّدة أنتجتها الحرب الأهليّة.

من المهمّ أن تنهض الحركة من وسط هذا الركام الكبير، لكي تعيد بناء ذاتها عبر دور ديناميكيّ، ممّا يفرض عليها الحذر وتوفير عوامل النضج كلّها لنفسها. وليس هناك أبلغ من المعرفة، تحصيناً من الوقوع والانزلاق إلى درك ما حصل مع الحركة الطالبيّة عام ١٩٧٥. ولنكن قادرين على التمييز والاستفادة في كلّ خطأ، وهو فعل إنسانيّ مناسب. ولكن، يصبح الخطأ خطيئة عندما لا نتعلّم من أخطائنا. وهذه مهمّة لا يمكن أن نوكلها فقط إلى الحركة الطالبيّة، بل من المفترض أن تتضافر الجهود، من مختلف المواقع، لتوضيحها وانجازها. مهمّة المراجعة شاملة. وهي مطلوبة من الأحزاب أيضاً. كما هي مطلوبة من الدولة بحوار حقيقيّ موضوعيّ ليستعيد لبنان الاستقلال والسيادة، وتُرسى دعائم بناء الوطن على أسس وقواعد قويّة وسليمة، مستفيدة من أخطاء الماضي، منذ الاستقلال وإلى اليوم. كما أنّ على الدولة أن تكون الحاضنة الفعليّة، وإنْ كانت هي الآن ليست ناضجة لمثل هذا الدور، نتيجة المصادرة والهيمنة وتصدّر مجموعة من الطبقة السياسيّة استندت على عوامل خارجية لكي تتبوّأ المراكز وتتحكّم بمصير الوطن. فالسلطات المتعاقبة، منذ الطائف إلى اليوم، لا تستطيع أن تلعب مثل هذا الدور. ويفترض بالمجتمع المدنيّ والحركة الطالبيّة إعادة ترميم المنهار واستعادة التاريخ المليء بالتجارب الدراماتيكيّة والمتعدّدة. ولن يكون واقعنا أكثر تعقيداً من واقع شعوب أوروبا وسواها، تلك التي واجهت استحقاقات مماثلة، ولكنّها استخرجت العبر والدروس، واستطاعت أن تعيد بناءَ أوطانها على أسس سليمة.

فما تستطيع أن تقدّمه هذه الأجيال كثير وكبير، من مواقعها المتعدّدة. ولا يجوز أن تكون في المواقع المتناحرة. ومن الطبيعي أن يكون التعدّد، والتنوّع، والاختلاف، والمنابع الفكريّة والسياسيّة. الحياة لا يمكن أن تكون

وحدانيّة، والسلطة كذلك. لا يمكن أن يحكم الحياة السياسيّة حزب واحد، ولا يمكن أن يحكم الأحزاب شخص واحد. على الأحزاب أن ترسي أسسها على الديموقراطيّة واحترام الفرد وعلى النظم الاجتماعيّة، وأن تأخذ بعين الاعتبار قيمة الفرد وصحّة التمثيل. الآن علينا أن نتحمّل مسؤوليّة أننا أُورثنا حالة غير مرضية، تسبّب في هجرة عدد كبير من الكفاءات والأجيال، توزّعت على بلدان العالم. وهو جزء من دور الدولة. ولكن، ماذا نفعل إن كانت السلطات المتعاقبة لا تستند، في شكلها، إلى إرادة الناس، إنّما إلى إرادة الأمر الواقع؟ هي لا تدين بتمثيلها إلى الناس، ولهذا لا تمثّل المصالح الوطنيّة العليا. وبذلك يصبح العبء ملقى على عاتق المجتمع المدنيّ والأحزاب السياسيّة والقطاعات الحيويّة: طلاّب، مزارعون ومجتمع أهلي. كما أنّه من الطبيعيّ أن تقع على الجامعات مسؤوليّة خلق المعرفة والعقل النقديّ للنهوض بالوطن.

على ضوء التجارب التي تعرّضنا لها، يجب أن تكون الجامعات في طليعة الصفوف من أجل استعادة وطن سيّد حرّ مستقلّ. ثورة الحريّة وضوء المعرفة يجب أن يتعاملا مع قضايانا بهدوء وموضوعيّة، وليس برفضيّة مطلقة تؤدّي إلى التنافر. على جيلنا أن يكون سبّاقاً في تكسير الحدود والتقسيمات داخل الشعب اللبنانيّ، وفي قلب إنتاج حركة استقلاليّة جديدة.

لم يكن الجيل الحاليّ هو الضحيّة وحده، بل جيل الستينات والسبعينات كان أيضاً ضحيّة جيل الاستقلال، الذي لم يقدّم له، «ولا يوم»، صورة عن الواقع. هو لم يكن، في يوم من الأيّام، متنبّهاً لتعليم أجيال الاستقلال قيم الوحدة الوطنيّة، لأنّه تلهّى ببعض الشّعارات ولم يتوقّف عند تاريخ الصراعات التي عاشها الشعب اللبنانيّ منذ أواسط القرن التاسع عشر.

أمّا اليوم فيفترض ألاّ يتساهلوا تجاه تجارب الماضي والحرب الأهليّة. بل، أنا أعتقد، أنّنا نستطيع أن نطلب أكثر من ذلك، وهو أنّ على الجامعات، طلاّباً وأساتذة، أن تتعاون في قراءة تاريخنا لتستفيد من التجارب. نحن لا زلنا في وسط تاريخ وواقع محفوف بمخاطر تحقيق الوحدة الفعليّة للشعب اللبنانيّ. وهنا، أقصد الوحدانيّة الذاتيّة، أي الانتماء الوطنيّ الحرّ والمستقلّ. من المفترض أن يكون عقل الشباب قادراً على قبول الآخر. الوحدة الوطنيّة هي السلاح الأفضل لكي نستطيع أن نعبر هذا الطريق الذي نحن فيه. الخطر هو في كون مصير البلد مهدّداً على مستويات عدّة؛ الوطنيّ والاصلاحيّ والاقتصاديّ الاجتماعيّ؛ وهذا يتطلّب رؤية عالية وتعلّقاً بالشريك. وهنا لا أقصد الشريك الطائفيّ، بل الشريك الآخر عبر التحاور معه واستحضار شرعيّة طموحاته وتفكيره، وهو المفهوم السليم للديموقراطيّة.

لا بدّ أن تستفيد الحركة الطالبيّة من تجربة الماضي والآخرين. الوقوع في الأخطاء ليس مدعاة للانكفاء. ولو كان الآخر كذلك لكانت المشهديّة الآن في بداياتها. كم من الأخطاء ارتكبت البشريّة في مسارها الملحميّ الذي أوصلها إلى ما وصلت إليه اليوم، ونحن جزء من هذه الملحمة البشريّة. ارتكبنا أخطاء، ويجب أن نبني مسالك أكثر صحّة وعقلانيّة.

٩- على الصعيد الفرديّ، لا أعتقد أنّ الندم يجدي. مراجعة التجربة هي الموقف المناسب. الماضي لا يمكن إعادته، يجب فهمه، والعمل بمقتضيات دروسه. الندم ليس موقفاً مناسباً. أعتقد أنّه موقف شعوريّ، لا يبيّن الاستعداد لاعادة البناء والتغيير من أجل تجاوز الخطأ.

نعم، لو كنت قادراً، وهو افتراض غير ممكن وواقعيّ، لما ترددّت في العودة إلى خوض التجربة. طبعاً لو قُدّر لي أن أرى بعين الحاضر، وأنا في الماضي، لكان مسلكي أكثر دقّة، ولكان أكثر قدرة على تجنّب المزالق. ذلك لا يمكن أن يحصل. ولكنْ، ما المشكلة؟ فنحن في الحاضر، وثمّة من يريد تكرار الأخطاء، في مقابل من لديهم الشجاعة للرؤية النقديّة وتقديم التجربة، وهو موقف شجاع به نستطيع أن نتفادى الأخطاء...

جانب إدارة التحرير

في خضمّ الجدل المحتدم حول توحيد الجامعة اللبنانيّة ودور الحركة الطالبيّة وانتماءاتها، وما تتعرّض له هذه الحركة من ملاحقات ومضايقات وتشرذم تصيب وجدان الشباب المتعطّش إلى الحريّة والديموقراطيّة، فتتفاقم محنته المتعدّدة الأسباب والوجوه: أزمة اقتصاديّة، وقلق اجتماعيّ، وانعدام فرص العمل، وهجرة أدمغة، وفوضى سياسيّة، وانقسام وطنيّ حول قضايا مصيريّة، وفشل القيادات في تخريج منطق وطنيّ سليم وتغليب الغوغائيّة والخطاب السلبيّ اليوميّ المفعم بالاتّهامات والتخوين... في خضمّ كلّ ذلك نرى أنّ توعية الشباب تشكّل عنصراً أساسيّاً في تحديد طروحاتهم وضبط انفعالاتهم وتسليس مشاعرهم وإغناء وجدانهم بالحيويّة وإبعاد اليأس والإحباط عن نفوسهم، لذلك نرى من المفيد أن تكون صفحات هذه المجلّة الجامعيّة منبراً واعياً ومعتدلاً لطرح قضايا الطلاّب والشباب، بعيداً عن التطرّف والغرائزيّة والانفعالات والتشنّج. وفي هذا الاطار، أثني على ما أضاء عليه الدكتور دياب يونس في حديثه عن حركة الوعي وروّادها، وأجد نفسي مساهماً في هذا التوجّه، فأطرح عرضاً شموليّاً لواقع الحركة الطلاّبيّة في عصر توهّجها ما بين الستينات وبدء الحرب اللبنانيّة، على أمل أن نقرأ مساهمات أخرى في هذا الموضوع من الذين عاشوا التجربة الطلاّبيّة في ذلك الوقت.

د. منصور عيد

الحركة الطالبيّة اللبنانيّة

عصر التوهّج

شكّلت الحركة الطلاّبيّة معادلة ديموقراطيّة متحرّكة داخل المجتمع اللبنانيّ بين الستّينات ومطلع السبعينات، في وقت كانت فيه الحركات الطلاّبيّة العالميّة تأخذ دورها في الصراعات المحليّة والخارجيّة. فالغليان الطلاّبيّ، أينما ظهر، جاء تعبيراً عن رفض لمشكلات كونيّة وإقليميّة ومحليّة، أو نتيجة بحث حثيث عن الذات في عالم مثقل بالفوضى والحروب والدمار والجوع والظلم، ومرهق بالصراع حول فلسفات وأفكار أطلقها القادة الكبار عناوين لأنظمة تحمي سلطتهم، وتشكّل خشبة الخلاص لبعض قياداتهم ولفرض نفوذهم، من دون أن تشكّل ضمانة روحيّة وماديّة لجيل ثائر يبحث عن الحريّة والاستقلال والأمن والسلام والصداقة والتعاون. وخيبات الأمل التي صدمت الشباب فجّرت عناصر النقمة، وأطلقت الرفض، وأشعلت الثورات، وحدّدت المطالب التي يصبّ معظمها في البحث عن ديموقراطيّة بعيدة عن سلطة الوصاية التي يمارسها عالم الكبار على الصغار بفرضهم أخلاقيّات تقليديّة متنوّعة في أشكالها وخطاباتها. وقد تجلّى هذا الرفض في اندفاع الحركات الطلاّبيّة إلى الشوارع، إضرابات ومظاهرات واحتجاجات.

أمّا الحركة الطلاّبيّة اللبنانيّة فقد مزجت توجّهاتها بالأفكار العالميّة والاقليميّة والمحليّة مجتمعة.

فعلى صعيد المشكلات العالميّة، ظهرت تفاعلات الصراع بين الشرق والغرب أو بين ثنائيّة النظام العالميّ القائم – الليبراليّ والاشتراكيّ – بتناقضاته العقائديّة والواقعيّة على حدّ سواء، وانعكاسات هذه التناقضات على الأنظمة الدائرة في فلك هذه الثنائيّة، وبالتحديد تلك الشعوب المقهورة على تنوّع

انتماءاتها، وما تتلقّاه من خيبة وفشل وقلق واضطهاد في ظلّ ما عُرف باسم الحرب الباردة.

أمّا على الصعيد الاقليميّ فخيبة الأمل كبيرة جداً، وصلت إلى حدّ الاحباط الكامل بسبب السلبيّات المطروحة في الجسم العربيّ، كالاستعمار والاتباعيّة والتخلّف والأميّة والدكتاتوريّة والقبليّة والعرقيّة وانعدام حقوق الانسان، وعدم توفّر فرص التعبير عن الوجود الحرّ. وقد غذّى هذه التناقضات دخول اسرائيل جسماً غريباً على الكيان العربيّ الجغرافيّ والقوميّ والسياسيّ، وما خلفّه هذا الكيان من قهر وتهجير على الانسان الفلسطينيّ مباشرة، وعلى الوجدان العربيّ حضارة وكرامة.

ويبقى الصعيد المحليّ حيث تنعكس إفرازات التناقضات الخارجيّة على توجّهات الشباب، إضافة للتناقضات الناخرة في الجسم الوطنيّ، وهي كثيرة وحادّة بفعل التناقض القائم حول مفاهيم غامضة ومضطربة في تحديد الوطن والهويّة والقوميّة والدولة والمواطنيّة، وهي في الغالب تخضع لتفسيرات متعدّدة ومتناقضة، تتحكّم فيها العصبيّات المحليّة وتقسم المجتمع عموديّاً، بدلاً من الولاء الجامع للوطن والدولة.

هذه التناقضات جميعها، خارجيّة وإقليميّة ومحليّة، وجدت لها متنفّساً حاراً في الموضوع الذي يشغل الاهتمامات القوميّة العربيّة، وهو رفض الجسم الدخيل على المجتمع العربيّ، أي دولة إسرائيل، وقد تعدّدت المواقف المتناقضة حول شكل هذا الرفض وكيفيّة تطبيقه، على الرّغم من الاتفاق حول المبدأ. لذلك استقطبت القضيّة الفلسطينيّة، وبالتحديد العمل الفدائيّ، اهتمامات الشباب اللبنانيّ كما استقطبت صراعاتهم، فكانت في الوقت نفسه متنفّساً لردود الفعل على الضغوط التي تمارسها الأنظمة التقليديّة على الشباب، وعلى رغبتهم في التعبير الديموقراطيّ الحرّ. فالعمل الفدائيّ شكّل رمزاً تحريريّاً ثوريّاً معبّراً عن انفعالات الشعوب العربيّة المستضعفة، وعن رفضها للخيبات المتلاحقة في الكيانات السياسيّة والاجتماعيّة والعسكريّة والاقتصاديّة. لم ينطلق هذا الرفض، تعبيراً عن مأساة الشعب الفلسطينيّ فحسب، بل تعدّاها ليؤسّس حركة ثوريّة ترفض الأنظمة العربيّة التقليديّة. وقد وجدت هذه الأنظمة نفسها مهدّدة بموجات النقمة والتحرّر، فاضطرت إلى التجاوب مع ضمير الشباب ووجدانهم لكي تحميَ نفسَها من نقمة شعوبها، فتنازلت عن ترفّعها وانصاعت للحركات الفلسطينيّة ومطالبها القاسية. وعندما وعت الحركات الفلسطينيّة هذا الواقع في العمق، تمكّنت من تثميره لصالحها، في جميع المجالات السياسيّة والعسكريّة والماليّة. في المقابل، سخّرت الأنظمة الثوريّة العربيّة بعض المنظّمات لتغطية فسادها وتخلّفها ودكتاتوريّتها، متستّرة بالدفاع عن القضيّة القوميّة.

في هذا الوقت خشيت فئة من الشباب اللبنانيّ من أن يؤدّيَ العمل الفدائيّ إلى تجاوزات تلغي دور الدولة اللبنانيّة وتقضي على هيبتها واستقلالها، فراحت تدعو إلى لجم العمل الفدائيّ وتحديد انطلاقه. نتيجةً لذلك، انتقل الصراع إلى طروحات الشباب اللبنانيين، فوجد الشارع الشبابيّ اللبنانيّ نفسه في خضمّ غليان تلك التيّارات التي حركت انطلاقات تحرريّة خطيرة، خصوصاً أنّ نفحةَ الديموقراطيّة في الحياة اللبنانيّة المميّزة عن ديكتاتوريّات المنطقة، سمحت للشباب بالاطّلاع الواسع على ما يجري في العالم. كما كان لوسائل الاعلام دورُها الفاعل في خلق أجواء الحريّة والتعبير الديموقراطيّ، وبشكل خاصّ الصحافة التي أمّنت، هي بدورها، منبراً تنعكس عليه التوجّهات الخارجيّة المتنافرة والمتناحرة، مصنّفة هي نفسها على قياس الأنظمة العربيّة القائمة، تقليديّةً كانت أم ثوريّة.

يُضاف إلى ذلك أنّ القضيّة الفلسطينيّة تداخلت وصميم الواقع اللبنانيّ السياسيّ والاجتماعيّ، من خلال وجود مخيّمات اللاجئين داخل التركيبة الديموغرافيّة اللبنانيّة، وبالتّالي داخل بُنية الوطن الصغير، فاستغلّت التناقضات المحليّة لتتسرّب إلى قلب الصراع، متحالفةً مع فرقاء يعملون في ظلّها، أو يناضلون من أجل مبادئ خاصّة متستّرين بها، على كونها قضيّة قوميّة محوريّة ومفصليّة في تاريخ الأمّة العربيّة الساعية إلى التعبير عن كيانها الحرّ داخل هذا العالم. ومن الطبيعيّ أن تتشكّل، بالمقابل، جماعات تقف على نقيض هذه الحركات. فظهرت معادلة خاصّة في السياسة اللبنانيّة سمّت نفسها، عن قصد أو غير قصد، اليمين اللبنانيّ مقابل اليسار اللبنانيّ المتمثّل بالفريق الآخر؛ مع العلم أنّ أطرافاً كثيرة لم تكن تؤمن بهذا التقسيم العشوائيّ البعيد عن الموضوعيّة والواقعيّة، حيث نرى إقطاعيين يتزعّمون اليسار، وفقراء يرفعون شعار اليمين، وإنّما انخرطت هذه الفئات في التسمية من باب تصنيف الذات في إحدى الجهتين، أو في معاكسة الجهة الأخرى، أو في لعبة الحكم والموالاة والمعارضة، وخرجت عن المفهوم العلميّ لهذه الثنائيّة. وفي قلب هذه المعادلة – اليمين واليسار اللبنانيّ – اختلطت المواقف السياسيّة بالقضايا القوميّة والوطنيّة وبالمطالب الاجتماعيّة.

كانت نشاطات الحركة الشبابيّة تتمظهر في الجامعات التي بلغ طلاّبها وعياً متقدّماً لقضايا العالم المعاصر والقضايا المحليّة. ومن الطبيعيّ أن تنقسم الحركة الطلاّبيّة في لبنان بين هذه التيّارات المتناقضة، فتتشكّل الخلايا الطلاّبيّة وكوادرها داخل الجامعات المتعدّدة الاتجاهات. يقول غسّان التويني في محاضرة له في الجامعة الأميركيّة حول هذا الموضوع: »إنّ حركة الطلاّب اللبنانيّة، رغم كونها جزءاً من التيّار التاريخيّ الكونيّ، تغلّبت عليها طبيعتها الخاصّة المستمدّة من واقع القضايا اللبنانيّة والعربيّة، فتمزّقت بين أوزار الماضي ومطامح المستقبل؛ وبدل أن تفتح للبنان آفاق الغد المقبل على الحياة، إذا بها تكبو، عند عتبة الحاضر: حاضر الانقسامات الطائفيّة التقليديّة وشعارات الانغلاق الفكريّ والروحيّ«

اختلطت الأوراق في الجامعة اللبنانيّة بين اليمين واليسار، واشتدّ الصراع حول النظرة إلى القضيّة الفلسطينيّة المحوريّة وحريّة العمل الفدائيّ، وحول قوّة الدولة في مواقفها المتعاطفة أو المتعارضة معها، أو تغليب الدولة على مفهوم العمل الفدائيّ أو أفضليّة هذا العمل على النظام العام. غير أنّ هذه الحركة أخذت الطابع الاجتماعيّ، لأنّ الطلاّب، في هذه الجامعة، ينحدرون من عائلات فقيرة أو متوسّطة؛ وفي هاتين الطبقتين زخم نفسيّ هائل نحو طلب العلم، كمظهر للاندفاعات الفكريّة والثقافيّة التي تميّز بها المجتمع اللبنانيّ. هذه الكتلة الطلاّبيّة صبّت نقمتها على حالات التردّي السياسيّ والاجتماعيّ والاقتصاديّ، وكان لأفرادها وقياديّيها الدور الفاعل فيما بعد، في حركة التجدّد العام. استقطبت حركة الوسط التأييد الفاعل، لأنّها تمكّنت من التعبير عن وجهات نظر الناقمين على متناقضات الواقع اللبنانيّ من جميع الفرقاء المتخاصمين في طروحاتهم السياسيّة والاجتماعيّة. ومن الطبيعيّ أن تستغلّ الأحزاب اللبنانيّة ثورتهم ونقمتهم لتعلن مواقف تؤيّدهم أو تحاول أن تضمّهم إلى توجّهاتها وإلى تأييد مصالحها. فكانت الجامعة اللبنانيّة مصهراً لهذه التناقضات والأحزاب على تنوّعها.

أمّا الجامعة اليسوعيّة فكانت خليطاً من جماعات اليمين المسيحيّ، تتصارع في ذاتها على النفوذ، وتحاول كلّ جماعة أن تفرض نفسها كفئة معبّرة، وحدها، عن توجّهات خطّ اليمين اللبنانيّ. أمّا أهدافهم الأيديولوجيّة فتكاد تكون واحدة، لأنّهم متّفقون على مناهضة اليسار اللبنانيّ المعبّر عن التيّار العروبيّ، وهم يحملون لواء التيّار اللبنانيّ المعارض للطروحات العروبيّة المتلاحمة مع القضيّة الفلسطينيّة، كما أنّهم يرون أنّ هذه القضيّة ستشكّل خطراً أساسيّاً على الوضع اللبنانيّ وعلى بقاء الدولة وسيادتها. ويتجلّى النزاع هنا بين الكتائب ومناصري الشمعونيّة. وهي في الأساس، نزاعات محليّة على النفوذ داخل المجتمع المسيحيّ أكثر ممّا هي صراعات على القضايا الوطنيّة المصيريّة.

أمّا الجامعة الأميركيّة فهي مركز التعبير عن التضارب في الفكر اللبنانيّ السياسيّ بكلّ تناقضاته حيث يلعب الفلسطينيون ومؤيّدوهم من الشباب اللبنانيّ دوراً بارزاً فيها. كما هي تتلقّى أصداء الصراعات العربيّة كلّها، لأنّها خليط من مجموعات طلاّبيّة مختلفة الأجناس والأديان والانتماءات التي تتمتّع بنوع من الاستقرار الاجتماعيّ الماديّ، ولكنّها تسعى إلى إثبات الذات من خلال الطروحات السياسيّة المتناقضة على الساحتين العربيّة والمحليّة، وإفرازات الصراعات العالميّة والتحرّكات الشبابيّة والعمّاليّة والشعبيّة. ولأنّ الجامعة الأميركيّة، على الرّغم من الصفة الأكاديميّة، هي رمز سياسيّ قويّ غير معلن، كونها تحمل اسم الدولة العظمى في العالم، صاحبة التأثير الفعليّ في الأحداث والأزمات، فإنّ التيّارات التي تصارعت فيها، كانت تهدف إلى فرز قوّتها، أو فرض إرادتها، لايصال رسائل محدّدة إلى الرأي العام الأميركيّ. هذه الرسائل تحمل خلفيّات فكريّة ذات طابع إعلاميّ مؤثّر، بطريقة أو بأخرى، في تحديد وجهات نظر كثيرة داخل المجتمع الأميركيّ.

تبقى جامعة بيروت العربيّة التي يسيطر عليها طابع عربيّ إسلاميّ يطرح توجّهات الاسلام اللبنانيّ والعربيّ على حدّ سواء، وتتنازع فيه التيّارات العربيّة التقليديّة والناصريّة والبعثيّة واليسار المنتمي والفرق الفلسطينيّة على اختلافها؛ لكنّ تحرّكات هذه الجامعة لا تشكّل عاملاً فرديّاً مؤثّراً في الحركة الطلاّبيّة إلاّ من خلال تداخلها ومناخ الجامعات اللبنانيّة الأخرى تأييداً أو رفضاً لمواقف وشعارات محدّدة.

هذه صورة عن واقع التجربة الطلاّبيّة اللبنانيّة التي كوّنت نفسها مختبراً لتفاعل القوى المحليّة والعربيّة والعالميّة، كما كانت المؤشّر الأهمّ لصراعات الطبقة السياسيّة في وجهيها الحاكم والمعارض، مع ما تحمله من تناقضات المجتمع اللبناني. فقلّما اهتزّ الكيان السياسيّ الداخليّ، في تلك المرحلة، إلاّ وكان له صدى في الشارع الطلاّبيّ الذي أفعم الحياة اللبنانيّة العامّة بالحيويّة الشابّة، وأطلق العنان أمام الطموحات الكبيرة والأحلام الزاهرة، وألهم إيديولوجيّات رومنسيّة أعطت الحالة الطلاّبيّة اللبنانيّة طابع التوهّج، وجعلتها صورة عن الحركة الطالبيّة العالميّة.

بـــولس سلامـــة

ولد عام ١٩٠٢ في «بتدّين اللقش» قضاء جزّين

توفّاه اللّه عام ١٩٧٩

الدروس والشهادات:

تلقّى دروسه الابتدائيّة في مدرسة القرية، وفي مدرسة بكاسين

التحق سنة ١٩١٣ بمدرسة الإخوة المريميين - صيدا

انقطع عن الدراسة في بداية الحرب الكونيّة الأولى، وعاودها عام ١٩١٨ في مدرسة الحكمة

التحق بمعهد الحقوق الفرنسيّة-الجامعة اليسوعيّة، وتدرّج في المحاماة في مكتب نجيب خلف.

مجموع سنوات الدراسة حتّى تخرّجه محامياً هو ثماني سنوات، انخرط بعدها في سلك القضاء عام ١٩٢٨، وتقاعد بسبب المرض في بداية الأربعينات. ثمّ انصرف إلى التأليف شعراً ونثراً.

مؤلّفاته:

مذكّرات جريح - حديث العشيّة - من شرفتي - خبز وملح - ليالي الفندق - في ذلك الزمان - حكاية عمر - تحت السنديانة - الصراع في الوجود - مع المسيح - عيد الغدير - عيد الرياض

المطوّلات الشعريّة:

الأمير بشير - عليّ والحسين - فلسطين وأخواتها - عيد الستين

الأوسمة:

ضابط من وسام الأرز

كومندور من وسام الأرز

وسام الملك عبداللّه

وسام إمبراطور إيران

ضابط أكبر من فرسان مالطا

حامل جائزة رئيس الجمهوريّة اللبنانيّة

وكان عضواً في أكثر من عشرين أكاديميّة دوليّة

انعقدت حوله مئات القصائد والمقالات، بقلم كبار شعراء العصر وكتّابه، في لبنان وكلّ أنحاء العالم العربي.

قرّر المجلس البلديّ، للعاصمة بيروت، تسمية أحد شوارع العاصمة باسمه، تكريماً له، واعترافاً بفضله على خزانة الشعر والأدب.

والدي كما عرفته

رشاد بولس سلامه

يوم قضى، صرخ لبنان: مات بولس سلامه! أمّا أنا فانتحبت على هدأته، وقد هالني سكونه، فانعقدت في قلبي الغصّة، وانحبس الدمع في مآقيّ، وأخذتني رهبة اللحظة إلى الذهول، فسمعتني أردّد: لقد رحل أبي... إنّ أبي قد مات!؟.

لم تكن الهنيهة الفاجعة لتعير نفسها للغضب، فاستعضت عن صرخة الاحتجاج، بذلك الشعور بالعتب.

عتبت على حكم القدر، ثمّ على ذاتي، لأنّي لم أمتلئ به كفاية. لم ألازم مجلسه، ولم أرتو من حديثه، ولم يشبع كياني من كيانه، ولا قلبي من وجوده، ولا أرضيت نهمي من حضوره.

وتملّكني إحساس الخاسرين الخائبين؛ أولئك الذين تكون الثروة، بل النعمة، في بسطة الكفّ منهم، فلا يدرون. ثمّ أدركني شعور بالذنب، فبدا لي أنّ كلّ ساعة تصرّمت من عمري، بعيداً منه، فإنّما هي ساعة ابتلعها الحرمان، سواء ما حرمت منه نفسي، أم ما حرمته منّي، حين يعصف بالأب الشوق إلى بنيه.

كجميع أهل الأرض، كنت أعرف أنّ الانسان هو على موعد غير مسمّى مع الموت. ولكنّني، كجميع أهل الارض أيضاً، كنت أستثني من القاعدة أهلي، وأصرّ على اعتبارهم باقين في هذه الدنيا، يستمرّون في العيش معي، وكأنّ ثمّة تلازماً دائماً وتحالفاً دائماً، بيننا وبين الحياة.

ويوم قضى أبي، كان النعيّ لدى أصدقائه، ومحبّيه، وقرّائه، وصحبه من أهل الفكر والقلم، وأصحاب المقامات والرتب، على امتداد لبنان، والعالم العربيّ، نعيّ الكاتب الشاعر والمفكّر والأديب، الذي قلّما تجود بأمثاله الدهور. فكان كلام في ذكراه كثير، وقصائد، ومقالات وشهادات، ودلالات على حجم الخسارة التي حلّت بعوالمه جميعاً.

ولا أعرف بالتمام أعداد الذين تلقّوا النعيّ، على أنّه خسارة الرجولة لأحد الرجال الجبابرة، والفروسيّة لأحد أبرز فرسانها، والشجاعة لأحد أعظم الشجعان، بل على أنّ النعيّ حمل خصوصاً خبر رحيل ذلك المؤمن الذي حاوره الموت وجهاً لوجه، أربعاً وعشرين مرّة، خضع في خلالها لمباضع الجرّاحين، فلم يرتجف قلبه، ولم ينخطف روعه، ولم يهلع.

كأنّما كان يدرك أنّ الربّ هو الذي أراد له محنته، فامتحنه طول عقدين من الزمن، مقعداً، مسمّراً على فراش الألم. ولعلّ بولس سلامه، من أجل هذا أيضاً، اعتصم بالربّ، وقدّيسيه، فلم يجدّف مرّة، ولم يدركه اليأس، ولا أفقده العذاب المرير المديد ذرّة واحدة من إيمانه العظيم.

أذكر أنّه في أواسط الخمسينات، مرحلة «الظهورات» العجائبيّة للقدّيس شربل، تحمّلَ والدي مشقّة الحجّ إلى دير عنّايا، حيث مثوى قدّيس لبنان. وقد بلغه ممدّداً فوق محمل. فصلّى صلاته، كلماتٍ موجزةً، فقال:

«سألتك يا ربّ، بشفاعة مار شربل، أن تمنّ عليّ بالشفاء. فاذا استجبت دعائي سبّحت بمجدك وشكرت. وإذا لم تستجب، سبّحت بمجدك وشكرت. إنّ إيماني، في كلا الحالين، لن يزيد مقدار ذرّة، ولن ينقص مقدار ذرّة، فلتكن مشيئتك يا ربّ».

الكريم، التي حفظها عن ظهر قلب. وبعضها من الأئمّة الأصفياء، تراثاً وحكماً وتعليماً ومواعظَ وخطباً؛ ولعلّ أعظم هؤلاء في نفسه، وأعمقهم أثراً، الإمام عليّ بن أبي طالب، عليه السلام. وبعضها الآخر من عمالقة الشعر والأدب، وكبار الفلاسفة والمفكّرين، على امتداد العصور، وفي مختلف بقاع الأرض.

وأذكر أنّه، عندما شاء التعرّف إلى «الروحانيّة» «Le Spiritisme»، في فلسفة الهنود المتصوّفين، استعان بمكتبة الزعيم اللبنانيّ الراحل، عظيم الفكر والثقافة المرحوم كمال جنبلاط، الذي عهد إلى أحد الأصدقاء المشتركين المرحوم كامل العبدالله، بإيصال بعض الكتب إلى والدي، وقد كانت صفحاتها حافلة بالتعليقات التي يبديها كمال جنبلاط، لتصبح الكتب والهوامش المكتوبة بخطّ الزعيم الراحل، مادّة هامّة للدراسة والتعليق من جديد، بخطّ بولس سلامه.

وكانت لوالدي هواية في النوادر والفكاهات؛ فهو يستحبّ سماعها، ويتقن روايتها، أو يبتدعها كلّما أعارته المناسبة سبيله إليها عفواً، أو هو

بهذا الايمان إيّاه، حمل والدي الآمه، وغامر بالسفر مقعداً إلى «لورد»، في الذكرى المئويّة لظهور العذراء. وكان يعلم تمام العلم أنّ وضعه لا يؤهّله لركوب الطائرة، وأنّ دون ذلك مخاطر صحيّة، ومحاذير. غير أنّه أقدم، بشجاعة المؤمن، وصلّى، فكان له الشفاء العجائبيّ الذي تصحّ نسبته إلى العناية الالهيّة، حتّى ولو لم يكن شفاؤه معجزة، بمقياس شروط المعجزة الآنيّة والفوريّة.

كان بولس سلامه يصلّي كلماته، وقلّما يعوّل على كتب الصلوات. بل كان ينفر من معظمها، صياغةً ومضموناً، ثمّ يرأف بالكتابات، ويعذر مؤلّفيها، بسبب كونها وضعت لعامّة الناس أصلاً؛ فهي، بهذا المعيار، إلى مداركهم أدنى، ولعلّها على تحريك ابتهالاتهم أقدر.

على سبيل المثال، أذكر أنّه كان يتذمّر من الصيغة القديمة لرتبة الآلام في الطقس الماروني، بخاصّة المناجاة المنسوبة إلى السيّدة العذراء، لدى مخاطبتها يسوع مسمّراً على الصليب، حيث كان المصلّون يرتّلون بلسان العذراء الكلام الآتي:

واحبيبي واحبيبي أيُّ حال أنت فيه

مَن شجاك من مناك ابنُ مَن هذا السفيه؟

ومن الواضح أنّ اعتراضه على الشكل والمضمون، كان في محلّه، إذ ليس من اللائق بالمرّة أن تكون مناجاة العذراء للمصلوب، في مثل هذا المستوى من الاسفاف الذي يذكّر بلغة أبناء الأزقّة.

وكانت سبحة الصلاة هي الفاصل الوحيد بين الوقت المكرّس للمطالعة، والوقت المكرّس لكتابة النثر. أمّا الشعر فهو ينظمه ليلاً، وفي العتمة. ولطالما أكدّ أنّه يتعذّر عليه إنشاء بيت واحد من الشعر في ضوء النهار.

وأؤكّد بدوري، أنّي لم أدخل غرفته مرّة إلاّ وجدته قارئاً، أو كاتباً، أو مصلّياً. حتّى لَكأنّه، وهو أسير فراشه، كان هكذا يحطّم أغلال سجنه، ويخرج إلى عالم الحريّة، عبر ما يغرف من المدارك، أو عبر إبداعاته التي احتوتها مؤلّفاته الأربعة عشر، ومن ضمنها فتوحاته في باب الملحمة العربيّة، «عيد الغدير» و«عيد الرياض»، إلى جانب صنيعه الضخم في الفكر، والأدب.

آراؤه في مختلف شؤون المجتمع وأحوال الحياة، مُعبّرٌ عنها في تلك المؤلّفات. ففيها وجدانه، وحنينه، وفيها أيضاً الموقف، الذي غالباً ما يكون وقفاً عليه.

كان يشبّه نفسه بالواقف على ذروة مفيّحة الأرجاء، يتنشّق نسائم الخير والجمال، من حيث تهبّ النسائم. فبعضها كان يأتيه من سور القرآن

بولس سلامه – الرئيس شارل حلو،
لمناسبة نيل الشاعر جائزة رئيس الجمهوريّة

يشتقّ، من بطن الحديث مع جلسائه، فَريدةً تضحك، أو نادرة تَفترُّ لها الثغور.

هكذا كان دأبه في مجالسه، ومع عوّاده، بل ومع قرّائه أيضاً. إنّه محدّث من المستوى الأرفع، ومستمع من النوع الأجود، وراوية من طراز وَحَد. فاذا تفقّده أصدقاؤه – وقد تضاءل عديدهم حتّى النُدرة – ليؤنسوا وحدته، خرجوا من الزيارة وقد متّعهم بالفكر الألمعيّ، وأسمعهم كلّ ما يؤنس وحشتهم، ويفرّج كربتهم.

إنّه هكذا على الدوام، يحمل عبء أوجاعه، ولا يتكلّم على جراحه، ويمضي بالجلساء والقرّاء، إلى نزهة للفكر هنا، ونزهة للنفس هناك، يبتدع الحدائق، ويشيع عبق الرياحين، ويلاحق البسمة حتّى يطمئنّ إلى ارتسامها بوضوح في محيّا الناس.

حتّى في كتابه «مذكّرات جريح»، حيث دوّن تاريخ مرحلة من مراحل الآمه، تراه يترك الكلام عن قصّته مع مباضع الجرّاحين، ليروي طرفة أو نادرة، تروّح عن القارئ، وتعفيه من لون مأساة الكاتب، وهول آلامه.

غير أنّه، وهو على هذا الطبع، الذي يألف المرح، كان أيضاً شديد الحرص على المهابة، وقوراً، حتّى ليقف وقاره، أحياناً، حائلاً دون تدفّق عاطفته.

في أحد تفاصيل علاقته بي، وبأشقّائي نهاد، بكر العائلة وكاهن قريتنا بتدّين اللقش، والمرحوم سهاد، القائمقام أوّل الذي فقدناه، وشقيقي الأصغر جواد، كانت هذه الخاصّة تتجلّى على نحو فريد.

فقلّما كان بيدي لنا عاطفته الأبويّة، مُرخاةً على السجيّة. بل كان يبذل جهداً ليكتم مشاعره، ويستعيض عنها بمسألة المهابة الوالديّة، ويعاتب «أدلينا» أمّي الحبيبة، إن هي بالغت في التعبير عن عاطفتها حيال «الأولاد».

فلقد كنّا تلامذة في المدرسة الداخليّة، في «دير المخلّص» وفي دير «سيّدة مشموشة» بعد مدرسة الحكمة في المرحلة الابتدائيّة، وقبل عودتنا إلى الحكمة في مرحلة الدروس الثانويّة.

وكنّا نعود إلى البيت في العطلات المدرسيّة الطويلة قبيل الميلاد، ورأس السنة. فإذا توجّهنا إلى البيت، كنّا نجد الحبيبة «أدلينا» واقفة تنتظر عند الشرفة شاخصةً إلى الطريق... وكان وقوفها يطول أحياناً، ساعاتٍ وساعات، كأنّها تستعجل أوان اللقاء.

«أدلينا» كانت ملاكه الحارس، ممرّضته وشهيدة مرضه، ورفيقة عمره، الرفيقة بعذاباته. وكانت مرفأ أمانه في الأزمنة العواصف، ومتّكأ رأسه، وسند خطاه.

«أدلينا»، تلاقينا بالضمّ والقبلات وتتنشق «الأولاد» وتسرّح في محيّاهم، وقاماتهم وأحجامهم، ومقاساتهم، أحبّ النظرات... ثمّ ندخل غرفة «بولس»، فيبسط لنا يده، نقبّلها، ثمّ نحظى بقبلة عابرة على إحدى الوجنات، لتبدأ جلسة السؤال، والاستعلام، والاستفهام.

لا، لم نكن نسأل عن مقدار شوقه، ولا عن حقيقة حاله، في تلك الليلة التي تسبق عودة «الأولاد». فهو بكلّ بساطة، وفي تلك الليلة، لا ينام، ويُقلق «أدلينا»، ويُؤرق نومها لكثرة ما يردّد: «أدلينا، غداً يعود الأولاد... غداً سنحضن الأولاد... غداً سيمتلئ بهم بيتي، غداً يفرح بهم قلبي».

ولعلّه كان، إذ يحاول إخفاء هذه العاطفة، يتمسّك بصورته كانسان جبّار، متمرّداً على الضعف في كلّ مظاهره وتجلّياته. أمّا أنا فكنت أساوي بين أسلوب تعامله معنا، حيث تغيب صورة الأب، عظيم الشوق إلى أبنائه، وأسلوب تعامله مع الألم، الذي إذا استبدّ به، فألجأه إلى الأنين أو الصراخ، لم تكن تخرج

من اليسار: سعيد عقل، شاعر تركيّ معاصر...، بولس سلامه، رشاد سلامه

من فمه أنّة، ولا من حنجرته صرخة، بل عبارة واحدة، وعبارة دائمة، تختزل الاثنتين، «مع آلامك يا يسوع»!

فإلى جانب إيمانه، كانت هنالك مجموعة القيم والفضائل، وقائمة النصائح التي يصرّ على تعليمها تعليماً... إنّه يُكثر الكلام على الاستقامة، قاعدةً أساسيّة متكاملة، تتفرّع منها جَميعة الفضائل.

كره التعصّب والتطرّف والتطيّف، ولعن الكذب والنميمة والرياء، وسخر من البخلاء، وهجا بقسوة الخبث والخبثاء، ومجّد الشجاعة، وأكبر قدر الشجعان. ولعلّه كان شديد الولع بسيرة الأبطال، في واقعهم والأساطير. ولعلّه تأثّر أيضاً، مذ كان يافعاً، بالبطولات على أنواعها، يعيش مناخاتها ويقرأ فصول النزال على المتحلّقين حول «الموقدة»، في سيرة «عنترة» وأبي زيد الهلاليّ، ليالي الشتاء.

ورغم أنّه كتب كثيراً في المجتمع، والاجتماع، – أي إنّه كتب في السياسة، لأنّ السياسة هي الاجتماع، فقد كان يزعم أنّه يكره العمل السياسيّ، وينهى عنه، سواء تعلّق الأمر بأحوال القرية، أم تناول الشأن السياسيّ في الوطن، وعلى مداه الأوسع.

قاوم بشدّة ميلي المرضيّ إلى التعاطي السياسيّ. وأسدى إليّ النصائح ليبعدني عن الالتزام الحزبيّ، وحاول جاهداً أن يوجّهني إلى الانخراط في سلك القضاء. وربّما كان يريد في ذلك غايتين:

أمّا الأولى فهي إشباع حنينه إلى الطريق الذي اختاره لنفسه، يوم أصبح قاضياً مثالاً، ثمّ تولّى بنفسه تقييم مسيرته القضائيّة والتعريف بها، فقال: «دخلت القضاء فقيراً، وخرجت منه مثقلاً بالديون»، دلالةً على الدور الرسوليّ الذي ينهض به القاضي، في مواجهة قضاء الارتزاق والانتفاع.

وأمّا الثانية، فهي تغليبي، بحكم إملاءات الموقع القضائيّ، على الهواية السياسيّة، التي أدمنتُ عليها بإصرار.

ولكنّه، عندما أيقن أنّ المسألة عندي هي أخطر من هواية، وأنّها التزام بقضيّة، وأنّها معتقد وعقيدة، وخلاصة اقتناع، بدأ بالمهادنة أوّلاً، ثمّ انتقل إلى الرعاية والاحتضان، ثمّ راح يدلّني على مدى التوافق «السياسيّ» بين موقعه غير الملتزم، وموقعي الشديد الالتزام بلبنان الوطن، الذي أنشد فيه بولس سلامه أطيب الأناشيد، مفاخراً بعروبته، معلناً هويّته، محدّداً، على طريقته، معنى الولاء، وحقيقة الانتساب.

ثمّة أمران، لم يكن فيهما متواضعاً، ولا أخفى كبرياءه فيهما: شاعريّته من جهة، ثمّ كونه شاعراً لبنانيّاً. ففي قصيدته غير المنشورة، بأمين نخلة، صديقه، ورفيق دربه، «عرّاب» ثلاثة من أولاده، أحدهم أنا بالذات، عبّر بولس سلامه عن هذه الكبرياء، فقال:

هل كنت للفنّ إلاّ ذروةَ الأدب ... يا بلبلَ الريف بل يا شاعرَ العرب ... رئيس لبنان، ها لبنان مجتمعاً ... بالوافدين نجومِ العالم العربي

أطلقته غَزِلاً كالصبح رقّتُه ... فلا ضباب ولا ستر لمنتقبِ ... يرون فيك حسامَ الرأي منصلتا ... لنجدة المسجد المحزون والصلبِ

يمضي إلى القلب في لطف النسيم وفي ... مرّ الأشعّة بين العين والهدبِ ... ويُكبرون حماةَ الضاد في بلد ... أهدى إلى الكون بكرَ الحرفِ والكتبِ

فآيةُ الشمس في آمادِ رونقها ... أن ينجلي عن سناها قاتمُ الحُجُبِ ... حلّت بنا اللغةُ الفصحى فما نزلتْ ... قفراً فحلّت على الآفاق والرحبِ

فتحتَ عهد القريض العذب منطلقاً ... من الرياحين ألفافاً على الهضبِ ... بآي تنزيلها باهت معابدُنا ... فعزّت الضادُ في المحراب والقببِ

ومن رحيق الدوالي خمرة عتقت ... أرزيّةَ الدنّ والأكواب والحَببِ ... إنْ عابنا خارجيّ أنّنا هجن ... لقد أعدنا تراثَ الضاد للعربِ

رواةُ شعرك لبنانُ برمّته ... جيلٌ على الصَدَحات الناعمات ربي ... أمين سر في صرود الأرز منتشياً ... مناجياً قمّةَ الجوزاء عن كثبِ

غنّى بها الكهلُ تذكاراً لغابره ... إذ كان بعد نضير الوجنتين صبي ... وقلْ لها شرفاتُ الخُلْدِ موعدُنا ... ملءُ العلى قلمي، لبنان منتسبي

ولم يزلْ سَمْعُه بالشدو متّصلاً ... كالخمر لم تنفصلْ عن جدّها العنبِ

أبوك أزجالُه رقّت كما همست ... كمائمُ الورد في سَمْعِ الندى الشنبِ

نشيدُه جبلُ الباروك متّشحاً ... بالوهج فوق ظلال الدوح والسُحبِ

لئن رأى غيره في الأرز مجتمعاً ... لشائخ السرح والبالي من الحطبِ

لقد رآه خشوعاً في جوانحنا ... وهيكلاً وَحَداً في جيرةِ الشُهبِ

تلك الجذوعُ وإن طابت نسائمُها ... سمر ألذّ وابل إن تحمل على الغضبِ

فلا منابتُها دانت لطاغية ... ولا أماليدُها ذلّت لمغتصبِ

أترابُ أجدادنا تلك الدوائحُ ما ... زالت بأكبادنا موصولةَ السببِ

من بات يجهلها زدناه معرفةً ... بسرّةِ الأرض أو مسكيّةِ الترب

تخال أطوادَها في الصبح مشرقةً ... جزائر الدرّ في بحر من الذهبِ

كنّا الأمينين ترعانا أبوّته ... فكم تعهّدني في الخُلقِ والأدبِ

فيا ابنَه تستطيع القولَ هاءنذا ... لقد نظمتُ السهى شعراً وكان أبي

ما أنسى لا أنسى لمّا قلتَ في ملأ ... وقد تحاورتِ الإخوانُ في أدبي

إنّ الملاحمَ لم تبرحْ مناطَ يدي ... فكلّما ظمئتْ فاءت إلى عتبي

إمّا أهبتُ بها لبّتْ ذوائبُها ... يأبينَ إلاّ مسيرَ الظلّ في عقبي

فيمَ الامارة؟ حَسْبُ الشعر منزلةً ... ألاّ يطاولَه عالٍ من الرتبِ

من ارتضى لقباً فيه، ولو ملكاً ... ينحطّ من جبلٍ عالٍ إلى صَببِ

حسبُ العظيمِ اسمه أكرِمْ به لقباً ... أمضى البواتر أعراها من القربِ

بولس سلامه الشاعر، عرّف بكبريائه، وعرّف بنفسه متكبّراً كما لا أحد.

فقال:

إنّما الشاعرُ العميقُ نبيّ ... سابرٌ للقلوب والمهجاتِ

البناءُ الجبّار ما شادَهُ الشعرُ، ... فخيرُ الأقلام خيرُ البُناةِ

وحدَهُ الشعرُ خلّد الحسنَ والحبُّ، ... وأعطى الحياةَ للأمواتِ

ولئن دلَّ فارسٌ بقناة ... قال فذُّ القريض هذي قناتي

فإذا مُتُّ فهي للخلدِ إرثٌ ... ليس منّي للأرض إلاّ رفاتي

أنا صنوُ الشلاّل في دولةِ الفيض، ... ورجعُ الهديرِ والصيحاتِ

مثلُهُ رفعةً ودفقَ سخاء ... وبشيراً باليُمنِ والبركاتِ

مثل ينبوعه نقاوةَ كفٍّ ... نَزِهاً عن مكاسب وسخاتِ

ما رأتني الجوزاءُ في موقف الذلّ ... طريحاً ومَوطِنِ الشُبُهاتِ

أو تخلّى عن الإباء يراعي ... فتردّى في معرض الصدقاتِ

عَوَّدتني من التبذّل نفسي ... وانتحَت بي مَراتبَ المكرماتِ

سرتُ في زحمة الحياة وحيداً ... وأضلّ المستكبرين أناتي

سوف يمضون في الزمان رماداً ... ويعيش الزمانُ في نبراتي

وتعود العصورُ تسأل عني ... كاسراتِ الجفون معتذراتِ

الملك سعود – بولس سلامه
محاطاً بنجليه نهاد
والمرحوم سهاد

كانت الغاية من هذه الكتابة، الكلام على «والدي كما عرفته». ولكنّني ما زلت منه في سؤال: هل عرفته حقّاً؟ وهل عرفته تماماً؟ وهل تمكّنت من الغوص حقّاً إلى جميع أعماقه؟ وهل استطعت حقّاً إحصاء جميع كنوزه؟ وهل قدرت فعلاً على إيفائه حقّه؟

في خضمّ هذه التساؤلات، يحضرني أمران:

الأوّل، وهو يعود بي إلى المرحلة التي تولّيت في خلالها تدريس مادّة الأدب العربيّ في عدد من المعاهد، قبيل ممارستي المحاماة. وفي خلاصته أنّي كنت حين أبلغ إلى موضوع «النفس الملحميّ» في شعر الأقدمين فأعالج مع التلامذة «أمرؤ القيس» «وعنترة بن العبد»، «وأبو تمّام»، «والبحتري»، والمتنبّي»، أشعر بأنّ البحث في هذا الباب لا يكتمل من الناحية الأكاديميّة، ما لم يشمل ولادة «الملحمة العربيّة» على يد بولس سلامه.

وكنت في وقت معاً، أشعر بالحرج حيال الطلاّب، أصحاب النزعة الدائمة إلى الدعابة، على حساب المعلّم. فثمّة مشكلة مع هذه النزعة، إذا أنا حاولت أن أفي بولس سلامه حقّه، لأنّي بالنتيجة، وفي نظر «الشباب»، فإنّما أنا أتباهى بوالدي... وثمّة في المقابل مشكلة أخرى، إذا أقفلت البحث في الملحمة، والشعر الملحميّ، على قاعدة التواضع، فغبنت بولس سلامه حقّه، وظلمت استحقاقه، لا لشيء سوى كونه والدي، ومخافة أن يقال فيّ: هذا رجل ذهبت عاطفته ببصيرته.

ولست أدري بالتمام، وبأيّ مقدار، عاودت في هذه الكتابة، حكايتي مع التلامذة، وبأيّ مقدار عاودني ذلك الشعور الذي كان ينتابني مع نهاية ساعات التدريس!!!

أمّا الأمر الثاني، الذي يبرّر التساؤلات، فهو آت من قصيدة لوالدي عنوانها «وحدة»، وليدة عذاباته، وإحدى بنات التشاؤم، أي الحالة النادرة في طبيعة بولس سلامه.

جاء في القصيدة:

سوط العذاب أطال سهده — فرثّت لأنّته المخدّه
أنّاته الحمراء جارية — مع الأنفاس وقده
لزم الوسادة عمرَه ما — أطول الأعوام رقده!
برِم السرير بعاشق — أعيا الأساة فلن تصدّه
لا الليل زحزحه ولا — وضح النهار أزال وجدَه
زفر الحديد ولا مَلامة — فالحديد أطاق جدّه
مات المعذّبُ وحده — أتراه عاش العمر وحده؟

لقد كتبت «والدي كما عرفته» تجاوباً مع طلب أحد أحبّ الاصدقاء***، وقد كان يجدر بي أن أبادر إلى محاورة أبي، خارج نطاق الطلب. ولعلّني أفعل، في معرض وفائي لذوري حياله كأب... وما أكثرها، وما أثقل حملها، وكم يطيب عندي مثل هذا العبء.

*** هو الاعلاميّ الأديب الأستاذ جورج مغامس.

حسن جوني

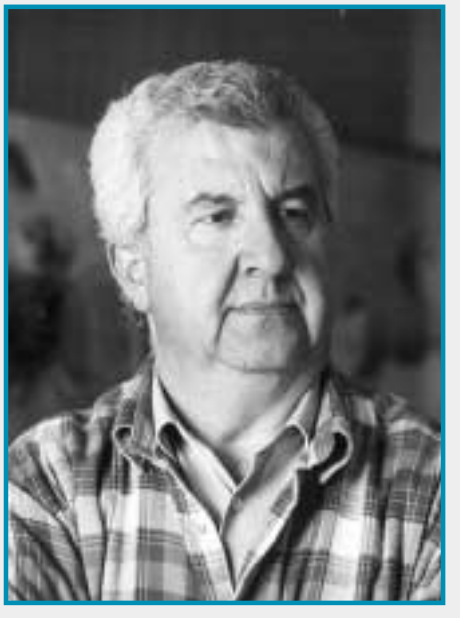

- خصوصيّة خصبة ناضجة، جذورها في المحليّة وفروعها في العالميّة

- ريشته السحر أقامت زمانها في صدارة عرس الجمال

أكاديميّ مثقّف، يقرأ في الواقع ويتخطّاه إلى آخر من نسج رؤاه، فإذا لنا منه خصوصيّة خصبةٌ ناضجة، جذورُها في المحليّة وفروعُها في العالميّة، واتّشحت بألوان الحياة، أعماقاً وأبعاداً، في حالات الانسان وأحواله.. والمدينة.. والطبيعة!

حسن جوني قيمةٌ فنيّةٌ، عاليةٌ وغالية، أقام زمانه في صدارة عرس الجمال...

– من مواليد بيروت ١٩٤٢
– دبلوم الأكاديميّة اللبنانيّة للفنون الجميلة ١٩٦٤ بيروت
– دبلوم أكاديميّة فوستر للفنون الجميلة ١٩٦٥ فالنسيا – إسبانيا
– «لقب» أستاذ في الرسم والتصوير من الأكاديميّة الملكيّة العليا للفنون الجميلة سان فرناندو – مدريد إسبانيا ١٩٧٠، مبعوثاً بمنحة من وزارة التربية الوطنيّة والفنون الجميلة.
– إجازة في تاريخ الفنّ من «الجامعة المستقلّة» مدريد ١٩٨٤.
– حالياً أستاذ في معهد الفنون الجميلة – الجامعة اللبنانيّة.
– حائز على الماليّة الذهبيّة الأولى – رسم وتصوير – في بينالي اللاّذقيّة الثاني ١٩٩٧.
– معارض خاصّة داخل لبنان وخارجه: ٢٤ معرضاً فردياً.

معارض عامّة:

شارك في مسيرة الفن التشكيليّ اللبنانيّ منذ العام ١٩٧٠، ومثّل لبنان في أكثر من بينالي عالميّ. وما زال. أعماله، موجودة في:
١– متحف سرسق
٢– متحف الفنّ المعاصر – الكويت
٣– متحف الفنّ التشكيليّ – عمّان
٤– المتحف الوطنيّ – دمشق
٥– متحف الفن المعاصر – ساو باولو البرازيل

أعماله موثّقة في المراجع المنشورة الآتية:

١– مئة عام من الفنّ اللبنانيّ
٢– نظرة الفنّان – مئتا عام من الفنّ اللبنانيّ
٣– قاموس الفنّ والفنّانين العرب
٤– الفنّ اللبنانيّ المعاصر
٥– الطبيعة الصامتة في الفنّ اللبنانيّ، منشورات B.U.C
٦– الإنسان في الفنّ اللبنانيّ، منشورات B.U.C
٧– مهرجانات بعلبك ١٩٧٥

بدايةً، كيف تستعيد بدايتَك الفنيّة؟

– «يوميّات الصمت والمنفى» عنوان معرضي الأوّل في دار «الفن والأدب» عام ١٩٧١، وهو مجموعة زيتيّات كنت أنجزتها في مدريد في أثناء دراستي هناك في الأكاديميّة الملكيّة العليا للفنون الجميلة – سان فرناندو، مبعوثاً من قبل وزارة التربية الوطنيّة والفنون الجميلة.

كان الفنّ الاسبانيّ المعاصر واضح التأثير في أعمالي يومذاك، وكان من الطبيعيّ أن يكون كذلك.. فأنا اخترت إسبانيا للدراسة، لما كانت تحرّضه في مخيّلتي من حوافز نهضتها التصويريّة المرتبطة بتراثها التعبيريّ.. وقد درست في الأكاديميّة على الأساتذة الفنّانين الذين كانوا هم طليعة الفنّ الحداثيّ وما يحتدم في ضمير الفنّ التشكيليّ بوجه عامّ، وأخصّ بالذّات أوروبا الغربيّة، ودورها القياديّ لمعظم حركات الفنون المعاصرة والتجارب الطليعيّة.

ذكرت تأثّريّ بالفنّ المعاصر الاسبانيّ، تقنيّاً، أي التعامل المباشر مع التجربة التجريديّة – التعبيريّة، وقد وجدت تجربتي الشخصيّة في صميمها، قناعةً

مقهى – ١٩٨٠

ويقيناً بالمفردة التجريديّة، كمشهديّة قادرة على تجسيد ما يدور في وجداني الفنّان. لكنّ التجريديّة تلك، كانت وسيلة تعبير عن مضمون لم أغادره أبداً منذ مطلع دراستي للفنّ في الأكاديميّة اللبنانيّة ما بين ١٩٦٢ و١٩٦٥، وصولاً إلى نهاية دراستي في مدريد عام ١٩٧٠ وحتّى اليوم.

ما هو المضمون الذي بقي حاضراً في لوحتك رغم التغيير الذي طرأ على مسيرتك التشكيليّة منذ أوّل معرض أقمته في ١٩٧١ وحتّى آخر معرض قدّمته في نيسان ٢٠٠١؟

– الواضح، أنّي اخترت «الإنسان» واختارني منذ صغري؛ فأنا نشأت في بيئة فقيرة، وفي حيّ قديم من أحياء بيروت هو «زقاق البلاط». في ذلك الحيّ ولدت بين مجموعة من الأسر الجنوبيّة التي قدمت إلى بيروت هرباً من العوز، وطلباً لحياة كانت أصعب ممّا ظنّت أنّها ستلاقيه. كان الحيّ ممتلئاً بالعمّال والحرفيين والمتعبين. ببساطة، كان نهارهم كدحاً وعرقاً، وليلهم زجلاً وذكريات صبا وحنيناً إلى القرى التي هجروا شمسها وهواءها وبراءتها.

ومن الصُدف أن تكون «فيروز»، ولم يكن اسمها يومذاك كذلك، جارةً، يفصل بيننا وبينها جدار من رمل وأحلام.

عشّاق القمر

استراحة...

في المعرض الثاني والثالث، بدأت أدخل رويداً رويداً في معطيات بيئتي اللبنانيّة، ممّا جعلني أدخل شيئاً فشيئاً في نمط تعبيريّ أكثر وضوحاً، وأعمق حضوراً، مع التخلّي عن وسيلة «التجريد» التي كنت أعتمدها لكتابة نصوصي التشكيليّة، وبمعنى أوضح، أسلبة الواقع وجعله رمزاً سهرتُ كثيراً على إبعاده عن الفهم المباشر وإدخاله في لعبة الإشارة «المجسّمة»، أي تجسيد الأجزاء المهمّة في اللوحة تجسيداً للشحنة التعبيريّة القصوى. وأقنعني ما توصّلت إليه؛ ودلالةُ ذلك، هي هويّتي الفنيّة منذ ذلك الحين، وصدقيّة توجّهي نحو صياغة تعبيريّة لبنانيّة، لم تكن من قبل، راجياً أن لا يشكّل هذا القول التباساً أو إشكاليّة. فالمنقّب في فنّ تلك المرحلة، لن يجد غير تيّارات فنيّة لها مثيلها في الغرب، رغم حياة أصحابها على أرض لبنان الزاخرة بالمواضيع والمؤثّرات البصريّة والاحتمالات التشكيليّة النابعة من مناخٍ تجريبيّ أصيل... لبنانيّ محض..

في معرضي ١٩٧٥، وفي غاليري كونتاكت، كنت قد بلورت تجربتي اللونيّة والخطّيّة، ودخلت لوحتي طقساً تعبيريّاً فيه إشارات مباشرة للحلم المتجسّد من كتلة تشويه مُتعمّد لبعض القيم التي لم تكن تُمَسّ في تأليف اللوحة المعهودة. ولوحات ذاك المعرض حملت إرهاصات الحرب التي حدثت وزادت همومي الإنسانيّة هموماً فاقت احتمالي، كما زادت إصراري على المُضيّ في تجربتي التعبيريّة الجديدة.

المنظر اللبنانيّ محطّة بارزة في مسيرتك. ما السبب؟

– هذا صحيح. وهو نابع من إيماني بالضوء الذي أسبح فيه. والقرى التي رسمتها لم تكن سوى تحيّة لمنازل الطفولة وشموسها الغاربة، وظلالها الهاربة. كلّ منظر رسمتهُ، أخذته من داخلي، وإن ظنّ البعض أنّ استعمالاتي للّون – الضوء كان بمثابة انطباعيّة ظاهرة، ولم يدركوا أنّ ما من منظر إلاّ وفيه الضوء والكتلة. لكنْ، من بحث عن ضوء اللوحة خارج اللوحة لن يجده. فاللون والإحساس بتداعياته وتدرّجاته في الكتل وصولاً إلى الذروة، لم تكن جميعها سوى ألوان كنت قد حضّرتها من تراب لبنان ولوّنت بها سلسلة المناظر التي تطوّر منظرها الجماليّ في أعمالي تطوّراً، صار بعدها المنظر اللبنانيّ وليد تجربة تشكيليّة في استطاعتها أن تتجاوز مفهومها التزيينيّ إلى إيقاعها التعبيريّ القادر على إيصال أدقّ التفاصيل وأكثرها عنفاً وشاعريّة في آن معاً.

الحرب! ما كان أثره عليك وفي أعمالك؟

– أثناء الحرب المشؤومة، تعرّفت على طفولتي التي تركتها في بيروت بين حيّي زقاق البلاط ورأس النبع. وما بين هذين الحيّين كانت «قهوة القزاز»: في البسطة الفوقا واحدة، والبسطة التحتا ثانية، طالما استوقفتني أتأمّل وجوه روّادها المسكونين بالسهر واليأس والوحشة، وإن بدا للناظر غير ذلك.. تلك القناطر والوجوه الذي يلفّها دخان التبغ والتنباك والنظرات المشدودة إلى الفراغ سواءٌ في المحادثة أو الاستماع. ورأيت «الحكواتي» راوي الحوادث وقارئ التاريخ الشعبيّ؛ كان هو المسموع المرئيّ ضمن مجموعة تريد الهرب إلى باطن التاريخ، أيّ تاريخ كان يهزّهم. رسمت سلسلة المقاهي، وأكّدت «الصمت» الجاثم على صدورهم وعيونهم وكأنّهم أحسّوا بالزلزال القادم إلى مدينتهم.

وأتى موسم «الهجرات» والهجرات المرتدّة، وتذكّرت أولئك القوم الذين أطاحت أحلام بيروت بحنينهم إلى قرية لم تعد لهم ولم يعودوا إليها إلاّ تحت نيران القصف والعنف والمعاناة.

رسمت سلسلة أعمال الهجرة، وكان فضاء اللوحة مرعباً ومثيراً. فقد اقتربت من الواقعيّة الرمزيّة أكثر ممّا ينبغي، وشحنت العناصر بألوان متناقضة متنافرة. وللحقيقة، في تجربتي «سلسلة الهجرات» تأكّدت أكثر من اكتمال خصوصيّتي التشكيليّة اللبنانيّة، وصرت أختبر بلونٍ محليّ وإحساس محلّيّ. ومخيّلتي أمست أكثر صفاءً. وتوحّدتُ مع وطني بالشكل والمضمون حتّى كأنّي صرت أتكلّم لغة خاصّة لم أعهدها من قبل، غير أنّها لغة البلد الذي أعيش فيه، ومنه أتيت وإليه سائر.. صرت أكثر إحساساً بالعصبيّة المحليّة، دون اطّلاعي المباشر بالسفر إلى أوروبا أو ما يصدر عنها من منشورات فنيّة، وأتوازن وأراقب وأحدّد موقعي من حركة التشكيل العالميّ، من ضمن قناعة ثابتة بأنّ العالميّة هي المحليّة نفسها، وعليّ كفنّان تشكيليّ إيصال مخيلتيّ إلى مرتبة عليا... إلى حيث أثبتُ هويّتي كفنّان لبنانيّ عاش النصف الأخير من القرن العشرين بكلّ جنوحه وصوابه واحتقانه الاجتماعيّ وثوراته المتعدّدة.

هكذا أحسست، وهكذا رسمت ولوّنت.

بيروت

إذاً، أنت ترى أنّ المحليّة الأصيلة توصل إلى العالميّة؟

– معارضي الشخصيّة الفرديّة، ومشاركتي في المعارض داخل لبنان وخارجه عادت عليّ بحصيلة نقديّة أسعدتني. فقد أوصلت رؤياي إلى العالم الذي قُدِّر لي الوصول إليه بشكل هو أصدق معطى للوحة تعبّر عن واقعها الاجتماعيّ والتاريخيّ والجغرافيّ. فالفنّ عندي وسيلة تعبير عن الفنّ نفسه كفرضيّة تطرح نفسها على تجربتي، ولا سيّما خصائص التلوين ونظام الكتلة وديناميّة الحركة. كذلك، هو الفنّ عندي وسيلة تعبير عن الذات القلقة التي أحملها. وقد أردت تحقيق ذاتي كفنّان يأخذ من واقعه مواضيع التجربة والرؤيا، وإيجاد المعادلات البصريّة، بطريقة تلائم بين الشكل والمضمون والأصالة.

وعلاقتك ببيروت، هل ما زالت وثيقةً وملهمة؟

– سأذكر «بيروت» كما ذكرتها في أهمّ أعمالي لبضع سنوات خلت. لقد هالني ما رأيت فيها من دمار طال طفولتي وكياني، بل طغى حتّى على ديمومتي فيها. جدران تصدّعت، وسقوف فارقها قرميدها، وأدراج صارت تفضي إلى الهواء. وأنا أبحث في هذا الزلزال عن وطني الذي أحببت، صارت بيروت عصباً لونيّاً وتكوينيّاً في لوحاتي؛ وصرت أرسم منازلها كما الناس التي تقطنها، جماعات تداعى بينها الحبّ والوداد تماماً كما ترسم منزلاً من دون قرميد أو درجاً بلا نهاية.. ورسمت بيروت في أوقات مختلفة ومشاهد مختلفة. هي والناس المنتظرين في الشوارع والممرّات طلباً للرزق أو بحثاً عن الحلم أو دخولاً في المتاهة. رسمت ناساً من دون أمنيات... من دون غد وكأنّ وحشةَ المكان قد أيقظت فيّ حنيناً

إلى مطارح لم تعد إلاّ في بالي، وبالتالي استحالت وتحوّلت من «مادّة» إلى «إنسان» وتعرّفت إلى أعمق درجات الرماد والتراب وانكسارات الضوء على بقايا الزوايا. وأصبحت لوحتي أكثر ميلاً إلى الحضور «السوريالي» منه إلى المشهد الثابت المباشر، كما هو الانطباع أو الواقع أو ملاحقة الأضواء كما ذكرت آنفاً.

وما زادُك من تجربتك إلى الآن؟

– زوّدتني تجربتي التشكيليّة الحاضرة بقناعة أثبتتها في نفسي، وهي أن لا بدّ للفنّان من دراسة أكاديميّة جيّدة، محبوكة بثقافة عامّة لمجريات تاريخ الحضارات والجانب الجماليّ على الخصوص. وهذا ما جعلني واثقاً تمام الثقة بأنّ اللوحة مزيج من ثقافة الفنّان الشاملة ومعرفته المؤكّدة بتقنيّات الخطّ واللون وأسرار التأليف وحاجاته والإجابة على المسائل المستجدّة أثناء نسج العمل الفنيّ. ودرّبت نفسي كيف أخرب الرؤيا كي أعيد صياغتها وفق ما أراه مناسباً، ثمّ أعمل جاهداً كي أنتقلَ من الواقع المرئيّ المدرك إلى واقع خلف ما رأيت، وحصلت على عالم هو في النهاية صورتي الشخصيّة بكلّ ما فيها وما عليها وما يحيط بها.

وكيف تنظر إلى ما أنجزت؟

– اليوم، وقد بلغت معارضي الفرديّة الأربع والعشرين معرضاً، أنظر إلى ما استطعت إنجازه بعين الرضا والقناعة. إنّي واثق ممّا فعلت. وتجربتي الحاضرة حديثاً، هي تأكيد الواقعيّة في المساحة الأولى من فضاء اللوحة. لكن، أيّة واقعيّة أتكلّم عنها وأرسمها!؟ فأنا آخذ بتعديل عناصر الواقع في فضاء اللوحة نفسها إلى تجريديّة، كأنّها خلاصٍ من سجن معلوم إلى فضاء أكثر إبهاماً وضبابيّة وضياعاً، سواء كان ذلك في المنظر الطبيعيّ أو اللوحة الإنسانيّة في شتّى وجوهها التعبيريّة، ولي منها صور العشق الغارب المحموم إلى فراق وانعتاق.

قال هوميروس ذات يوم... «كلّ شيء ينتهي في كتاب».

ترى، هل كلّ شيء يمكن أن ينتهي في لوحة..!؟ لا.. ونعم. وهنا تكمن أسرار لوحتي الباحثة عن ذاتها في مرايا كثيرة.

د. سـامي مكارم

البتول

إيهِ أيّتُها البتول!
يا مَن سَلَلتِ ذاتَكِ من ذاتك
بَتْلاً من كلِّ غير،
مِن تَواصُلِ العدَدِ بالعدَد
والكثرةِ بالكثرة
والواحدِ بالواحد...

مَحَقْتِ الأنا
فامّحقَ الأنت
وسطعَ الهُوَ
طيّاً ونشراً...

عُدتِ إليه
ولا "إلى"،
سرى فيكِ
ولا "في"،
أحاطَ بكِ
ولا حدّ،
لا خارج ولا داخل...

ذاك هو الرَّحِمُ الكبرى
رَحِمُ الرَّحمانيّة
جنينُها البشَرْ..

تَمَثّل الهُوَ بَشَراً
بشارةً
دَخلَتِ البشارةُ الرَّحِمَ
فإذا الرَّحِمُ بشريَّةٌ
حادبةٌ على الحادبِ
على رَحِمِ الكون
طفلٌ من بشرٍ
حادبٌ على رَحِمِ البشَر
رَحِمٌ في الرَّحِمِ،
هُوَ في هُوَ
الشمسُ في القمَرْ!!!

اللهُ من ليلةٍ قمراءَ قد عَبَرَتْ
في مُقلتيَّ إلى قلبي بلا خفَرِ

فلألأ القلبَ نورٌ فاستوى طرباً
وقامَ والوجدُ يزجيهِ إلى السَّفَرِ

إلى بحارٍ من الأنوارِ تدخُلُ في
أعماقِهِ كدخولِ الشمسِ في القمَرِ

المعنى يدخُلُ الحرْف،
القديمُ يدخُلُ المُحدَث،
المُطلَقُ يدخُلُ المحدود...

الحرفُ المُحدَثُ المحدودُ
يَشِفُّ
يتماهى
هو والرَّحِمُ الجنين...

رفَّ الزجاجُ وراقتِ الخَمْرُ
فتشابها فتشاكل الأمرُ

فكأنَّما خمرٌ ولا قدحٌ
وكأنّما قَدَحٌ ولا خَمْرُ

لولا الخمرُ ما كانت قدَحٌ
لولا المعنى ما كانَ حرفٌ
لولا القدَحُ ما شُرِبَت الخمرُ
ما تحقَّقتْ خمرا

لولا الحرفُ ما عُرِف المعنى
ما تحقَّقَ معنى...

"كنتُ كنزاً مخفياً
فأحببتُ"
أحببتُ "أن أُعرَفَ
فخَلَقْتُ"
خَلَقتُ "الخلقَ
كي يعرفوني"...

ما الكنزُ
إنْ لم يُعرَفْ
ما المعنى
إنْ لم يَدخلْ رَحِمَ الحرف
فاذا هو الكلمة!!

"في البدءِ
كان الكلمة
والكلمةُ كان عند الله
وكان الكلمةُ
اللهَ".

دَخل المعنى الحرفَ!
أيُّ دخولٍ؟
ولا خارج!
أيُّ دخولٍ
ولا داخل!
المعنى في الحرفِ
والحرفُ في المعنى...
أيُّ "في"؟

انوجد المكانُ
انوجد الكون!!

وامّحقَتْ فيكِ
يا رَحمَ الألوهةِ
آنيَّةُ الأبْنِ
وأينيَّةُ الآن
إذ وُجِدتِ الألوهةُ
رَحِماً في رَحِمِ...

٢٠٠١/٥/٢٧

رسائل بولس الرسول

الأب وليد موسى
مدير الادارة في الجامعة

القدّيس بولس هو من أطلق الكتابات المسيحيّة بكتاباته الرساليّة. والرسالة، بشكل عامّ، تكون خاصّة وشخصيّة، ينطبق مضمونُها على الشخص المرسلة إليه، وليس على العموم، ويقتصر فهمها، عادةً، على المرسِل والمتلقّي.

١- ما هو وضع رسائل القدّيس بولس؟

كتب بولس الرسول إلى جماعات أو أفراد كان يعرفهم بشكل مباشر أو غير مباشر. وعالج مواضيع خاصّة، متعلّقة فقط بمتلقّي هذه الرسائل، فطرح مسائل تخصّ جماعة دون سواها.

وهنا يُطرح السؤال: إذا كانت هذه هي الحال قديمًا، فما هي قيمة رسائله اليوم، ولماذا نقرأها دوماً في احتفالاتنا الليتورجيّة؟

لم يَنوِ القدّيس بولس وضع مؤلّفات أدبيّة، بل كتب للمعمّدين ليعالجَ مشاكلهم الايمانيّة والحياتيّة، ويجيب عن أسئلتهم ويمدحهم ويوبّخهم.

والكنيسة، من بَعد، حفظت هذه الرسائل، وتناقلتها، وجعلت منها كتابات مسيحيّةً قانونيّة، لأنّ بولس كتبها بدافع من الروح القدس وبإلهام إلهيّ. فهي تشتمل على حقائقَ إلهيّة ثابتة، لا يغيّر فيها زمانٌ أو مكان. ويمكن جمعها تحت عنوان واحد، هو: الحياة في يسوع المسيح.

٢- ما هي هذه الرسائل؟ وكيف يمكن توزيعها؟

إنّ عدد هذه الرسائل هو ١٣، تتوزّع على ثلاثة مجموعات.

٢-أ. الرسائل الأولى الطويلة

١. رسالة أولى إلى مسيحيّي تسالونيقي.
٢. رسالة ثانية إلى مسيحيّي تسالونيقي.
٣. رسالة أولى إلى مسيحيّي قورنتس.
٤. رسالة ثانية إلى مسيحيّي قورنتس.
٥. رسالة إلى مسيحيّي غلاطية.
٦. رسالة إلى مسيحيّي روما.

٢-ب. رسائل السجن

٧. رسالة إلى مسيحيّي فيليبي.
٨. رسالة إلى فيليمون من مدينة قولسي.
٩. رسالة إلى مسيحيّي قولسي.
١٠. رسالة إلى مسيحيّي أفسس.

٢-ج. الرسائل الرعائيّة

١١. رسالة أولى إلى طيموتاوس أسقف أفسس.
١٢. رسالة إلى طيطس أسقف كريت.
١٣. رسالة ثانية إلى طيموتاوس.

٣- ما هي الخطوط العريضة في فكر بولس الرسول من خلال رسائله؟

صحيح أنّ القدّيس بولس أخذ بعض المقوّمات اللاهوتيّة من الكنيسة الأولى، إلاّ أنّه استطاع، أكثر من سائر كتّاب العهد الجديد، أن يجمع ويصهر معلوماتٍ من مصادرَ مختلفة، تولّد عنها نظامٌ لاهوتيّ جديد.

على مثال أيّة مجرّة فضائيّة، حيث، في الوسط، كوكبُ الشمس ينير كلّ أنحاء المجرّة، فإنّ السرّ الفصحيّ (موت وقيامة يسوع) هو الأساس، وفي الوسط النظامُ اللاهوتيّ البولسيّ، يَشِعّ ويُخصِبُ ما حوله من فكر مسيحيّ. هذا السرّ الفصحيّ هو المدخل إلى البشارة المسيحيّة، وعليه يرتكز كلّ حديث عن اللّه والانسان والعالم.

إنّه لحدثٌ واحد في مرحلتين: الصَلب والقيامة، تبدوان متناقضتين، إلاّ أنّهما متكاملتان وتكوّنان سرّاً فصحيّاً واحداً. هما مرحلتان لا ترتبطان بعلاقة زمنيّة، بل لاهوتيّة، إذ إنّ القائم من الموت لا يلغي المصلوب، بل الذي مات على الصليب

هو أصلاً «ربّ المجد» (يقول بولس في ١ قور ٢/٧: «لو أنّ رؤساء هذه الدنيا عرفوا حكمة اللّه السرّية لما صلبوا ربّ المجد»). كما أنّ الذي يتمجّد يبقى موته دائماً في تلاميذه المجاهدين (وهنا يقول بولس في ٢ قور ٤/١٠: «نحمل في أجسادنا، كلّ حين، موت المسيح، لتظهر في أجسادنا حياة المسيح أيضاً»).

هذا هو الجديد الذي يميّز المسيحيّة، ويجعل منها ديناً جديداً، بالرّغم من الجذور التاريخيّة والمنهجيّة المتأصّلة في اليهوديّة.

ويعود إيمان بولس بهذا السرّ الفصحيّ، أي موت وقيامة يسوع المسيح، إلى ارتباط تعاليمه اللاهوتيّة بلاهوت الجماعة المسيحيّة التي سبقته؛ وقد صرّح عن ذلك في رسالته الأولى إلى أهل قورنتس ١٥/٣-٥، حين قال: «سلّمت إليكم قبل كلّ شيء ما تسلّمته أنا أيضاً»، وهو أنّ المسيح مات من أجل خطايانا كما ورد في الكتب، وأنّه قبر وقام في اليوم الثالث كما ورد في الكتب».

ولمّا كان هدف القدّيس بولس الأوّل هو الحياة في يسوع المسيح المائت والقائم من الموت، فأيّ عرض لفكر الرسول يجب أن يرتكز على هذا التوجّه الأساسيّ. لذا، سنرى كيف يتجلّى هذا السرّ الفصحيّ، من خلال بعض المحاور الأساسيّة التي تطرّق لها بولس، ألا وهي أسماءُ يسوع وألقابُه، وعمل الخلاص، ومفهومُ الانسان، ومفهومُ الكنيسة.

٤- أسماء يسوع وألقابه

١- اسم «الرب» الذي يمكن أن نراه في النشيد المسيحانيّ إلى أهل فيليبّي ٢/٦-١١، حيث هو تمجيدٌ من الآب ليسوع ونتيجةٌ لموته على الصليب. يقول بولس:

«فمع أنّه في صورة اللّه، لم يعد مساواته للّه غنيمة، بل تجرّد من ذاته متّخذاً صورة العبد، وصار على مثال البشر، وظهر في هيئة انسان، فوضع نفسه وأطاع حتّى الموت موت الصليب. لذلك رفعه اللّه إلى العلى، ووهب له الاسم الذي يفوق جميع الأسماء كيما تجثو لاسم يسوع كلُّ ركبة في السموات وفي الأرض وتحت الأرض، ويشهد كلّ لسان أنّ يسوع المسيح هو الربّ تمجيداً للّه الآب».

٢- أمّا اسم «المسيح»، والذي يرد ٣٥٣ مرّةً عند بولس، فإنّما صار، مع بولس، اسماً خاصّاً بيسوع الناصريّ الذي مات وقام. لقد استعمله بولس بديلاً عن يسوع.

٣- اسم «ابن اللّه»، ويرد عند بولس ١٧ مرّةً فقط، فبولس يربطه دوماً بالرسالة التي من أجلها أرسل اللّه ابنه. ففي غلاطية ٤/٤-٥ يقول: «فلمّا تمّ الزمان، أرسل اللّه ابنه مولوداً لامرأة، مولوداً في حكم الشريعة، ليفتدي الذين هم في حكم الشريعة، فنحظى بالتبنّي». والشيء نفسه يقوله بولس في روما ٨/٣: «فالذي لم تستطعه الشريعة، والجسد قد أعياها، حقّقه اللّه بإرسال ابنه في جسد يشبه جسدنا الخاطئ، كفّارةً للخطيئة».

٤- وهناك الكثير من الأسماء الأخرى التي أعطاها بولس ليسوع، والتي تحمل معاني لاهوتيّةً ومسيحانيّةً عميقة، رغم أنّها لم ترد بكثرة عنده، ومنها:

- «كان آدم الانسان الأوّل نفساً حيّة، وكان آدم الآخر روحاً محيياً» (١ قور ١٥/٤٥).
- «وأمّا للمدعوّين، يهوداً كانوا أم يونانيين، فهو مسيح، قدرة اللّه وحكمة اللّه» (١ قور ١/٢٤).
- «هو صورة اللّه الذي لا يُرى، وبكر كلّ خليقة» (قولسي ١/١٥).
- «هو رأس الجسد ورأس الكنيسة، هو البدء والبكر من بين الأموات». (قولسي ١/١٨).
- «هو رأس الكنيسة، التي هي جسده وهو مخلّصها» (أفسس ٥/٢٣)

كلّ هذه الأسماء تحدّد يسوع، إنطلاقاً من موته وقيامته، إذ إنّ التركيز عند بولس هو على الحدث الفصحيّ وعلى ما ينتج عنه للايمان المسيحيّ. هذا يكشف لنا سبب سكوت بولس عن بعض الأسماء المعروفة عن يسوع الأرضيّ، الانسان، والتي نجدها في الأناجيل كـ «معلّم، نبيّ، إبن داوود، إبن الانسان».

٥- عمل الخلاص

بشكل مميّز، يرتكز عمل الخلاص عند بولس على الحدث الفصحيّ. يقول لنا في غلاطية ٢/٢١: «فإذا كان البرّ يُنال بالشريعة، فالمسيح إذاً قد مات سدىً». ويركّز بولس هنا على أهميّة موت يسوع المسيح من أجل الحصول على البرارة.

ويقول أيضاً في ١ قور ١٥/١٧: «وإذا لم يكن المسيح قد قام، فإيمانكم باطل ولا تزالون بخطاياكم».

أمّا هنا، فيركّز على أهميّة قيامة يسوع من بين الأموات من أجل الحصول على البرارة من الخطايا.

إذاً، يعطي بولس الرسول لموت يسوع المسيح على الصليب ولقيامته من بين الأموات الأهميّةَ الخلاصيّة نفسها.

٥-أ. أهمّية الصليب والمصلوب

١ قور ٢/٢: «فإنّني لم أشأ أن أعرف شيئاً، وأنا بينكم، غير يسوع المسيح، بل يسوع المسيح المصلوب».

قولسي ٢/١٣-١٤: «كنتم أمواتاً أنتم أيضاً بذلاّتكم فأحياكم اللّه معه، وصفح لنا عن جميع ذلاّتنا، ومحا ما كان علينا من صكّ وما فيه من أحكام، وأزال هذا الحاجز مسمّراً إيّاه على الصليب».

روما ٣/٢٣-٢٤: «إنّ جميع الناس قد خطئوا فحرُموا مجد اللّه، ولكنّهم بُرّروا مجّاناً بنعمته، بحكم الفداء الذي تمّ في المسيح يسوع»، وذلك على الصليب.

هكذا يتجلّى عدل اللّه الذي هو رحمة ورأفة لامتناهية. عدل اللّه وبرّه مع الانسان ليس لهما مثيل!

٥-ب. أهمّية القيامة

ويقول بولس في روما ١٠/٩-١٠: «فإذا شهدتَ بفمك أنّ يسوع ربّ، وآمنتَ بقلبك أنّ اللّه أقامه من بين الأموات، نلتَ الخلاص. فالايمان بالقلب يؤدّي إلى البرّ، والشهادة بالفم تؤدّي إلى الخلاص».

الايمان والشهادة بالقيامة هما مصدر الحياة الجديدة وخلاص النفس.

فالقيامة إذاً لا تهدف فقط إلى الكشف عن هويّة المسيح، بل لها تأثيرها الفعّال على كلّ مؤمن بقدر ما تجعل من يسوع المسيح قادراً على التدخّل المثمر في المسيحيّ، وذلك بواسطة روحه، أي روح المسيح؛ فيكون بالتّالي الرسول بولس أوّل من تكلّم عن «روح الابن»، حيث يقول في غلاطية ٤/٦: «والدليل على كونكم أبناء، أنّ اللّه أرسل روح ابنه إلى قلوبنا، الروح الذي ينادي «أبّا»، يا أبت»، أو عن روح المسيح حيث أيضاً يقول في روما ٨/٩: «أمّا أنتم فلستم تحيون في الجسد، بل في الروح، لأنّ روح اللّه حالٌ فيكم. ومن لم يكن فيه «روح المسيح» فما هو من خاصّته». فهذا الروح، روح الابن، روح المسيح، الحالّ في قلوبنا بواسطة سرّ العماد المقدّس، أصبح سبب تشبّهنا بالمسيح وخميرة الحياة الجديدة.

٦- المفهوم البولسيّ للانسان

يكلّمنا بولس دوماً عن موت وقيامة المسيح «من أجل خطايانا» و«من أجل الخطأة»، و«من أجلنا»، و«من أجل الجميع».

هذا الحدث الفصحيّ إذاً هو أيضاً من أجل الانسان، «الانسان العتيق»، وتحويله إلى «الانسان الجديد»، ذلك «الانسان العتيق» الذي هو خارج عن يسوع المسيح، والذي صار كذلك بعبوديّة الخطيئة وشهوة الجسد. أمّا مع المسيح، فهذا «الانسان العتيق» يصبح خلقاً جديداً وإنساناً جديداً، مخلوقاً على صورة اللّه، بقوّة نعمة اللّه والايمان العامل بالمحبّة.

الانسان الجديد هو الذي لا يَدين لأحد إلاّ بالحبّ، هو الذي يحبّ قريبه حبَّه لنفسه، لأنّ المحبّة لا تُنزل بالقريب شرّاً وهي كمال الشريعة (روما ١٣/٨-١٠).

فيقول بولس في ١ قور ١٣/٢: «ولو كان فيَّ الايمان الكامل فأنقل الجبال، ولم تكن لي المحبّة، فما أنا بشيء».

٧- المفهوم البولسيّ للكنيسة

للسرّ الفصحيّ، عند بولس الرسول، أهميّة كبيرة أيضاً عندما يتكلّم عن الكنيسة، وذلك ليس لأنّ المفهوم الكنسيّ راح يتطوّر بعد القيامة، ولا لأنّ أعضاء الكنيسة يتميّزون بإيمانهم بالربّ المائت والقائم من الموت، وإنّما بالتحديد الخاصّ به الذي يعطيه للجماعة المسيحيّة كجسد المسيح والمتأصّل في ذلك الحدث الفصحيّ.

الكنيسة ليست فقط مثل جسد، أي جمعيّة عضويّة ومنظّمة وحسب، بل هي في الحقيقة جسد المسيح. يقول بولس في ١ قور ١٢/١٢: «وكما أنّ الجسد واحد وله أعضاء كثيرة، وأنّ أعضاء الجسد كلّها على كثرتها ليست إلاّ جسداً واحداً، فكذلك المسيح».

والمسيح بقدر ما هو قائم من الموت، هو رأس الكنيسة، فقد «وهبه اللّه لنا فوق كلّ شيء رأساً للكنيسة، وهي جسده» (أفسس ٢٢/١)، وبقدر ما أحبّها باذلاً نفسه من أجلها هو عروسها.

٨- خاتمة

أمام سرّ موت وقيامة ربّنا يسوع المسيح، أمام هذا الحدث الفصحيّ نحن مدعوّون لأن نحيا بالايمان العامل بالمحبّة. ويبقى الرجاء أساساً لوجودنا في العالم لنتذكّر «أنّنا لا نهدف إلى ما يرى، بل إلى ما لا يرى» (٢ قور ١٨/٤)، «لأنّ صورة هذا العالم في زوال» (١ قور ٧/١٣).

وها هوذا الآن يوم الخلاص (٢ قور ٢/٦)، نقرّره نحن المسيحيين بأنفسنا. اليوم، صليب المسيح يميّز بين الذين يهلكون والذين يخلصون، وذلك لأنّ «لغة الصليب حماقة عند الذين في سبيل الهلاك، وأمّا عند الذين في سبيل الخلاص، أي عندنا، فهو قدرة الله» (١ قور ١٨/١). وتكون المحبّة هي التي تربط حاضرنا بمستقبلنا، وهي التي تقرّر مستقبلنا. «فالآن تبقى هذه الأمور الثلاثة: الايمان والرجاء والمحبّة، ولكنّ أعظمها المحبّة» (١ قور ١٣/١٣).

يا رفقا المعلّمة، علّمينا..

الأب سمير غصوب
مدير الماليّة في الجامعة

ونحن نهلّلُ فرحاً بقدّيستنا رفقا، تملّكني شعورٌ بالرهبة، فقلتُ في نفسي: كم هي طريقُ القداسة شاقّةٌ ومكلفة! فعيشُ المشورات الانجيليّة ليس بالأمر السهل، بل يستدعي استعداداً دائماً لمواجهة فتجاوز كلّ صعوبةٍ وهوىً، ولن يكونَ ذلك ما لم يكنْ التحامٌ بالله. فحضورُ الله الدائمُ هو وحدَه ما يقوّي الالتزامَ، ويحصّنُ من الانحراف، ويحولُ دون الاسترخاءِ وشعابِه الضبابيّة... وهل «بالقليل» أن يكونَ اللهُ حاضراً في فكرنا وقولِنا والعمل؟!

وكيف لنا، ونحن المشاعرُ والأحاسيسُ والأخيلة.. والنزواتُ والنزعات.. والآمالُ والطموحات.. وما إليها من مكوّنات...، كيف لنا أن نصمدَ ونقاوم.. ونجاهدَ وننتصر، تحقيقاً لذواتنا نقيّةً طاهرةً، فتستحقَّ أن تتّحدَ بالذاتِ الكبرى، ذاتِ مَن هو الألفُ والياء، وقال عن نفسه: «أنا الطريقُ والحَقُّ والحياة»؟

إنّها لَمهمّةٌ عسيرةٌ جداً، لكنّها مصيريّةٌ – وقد قال تعالى: لا تكنْ فاتراً فألفظَك. فهو يريدُنا له ومعه بكلّيتنا، ليس بالصلاة فحسب، بل بالخدمة أيضاً.. خدمة كلِّ إنسان في ما يؤولُ إلى حفظ كرامته، وصلاحِ سيرته، وخلاصِ نفسِه. ومثالُ رفقا، في ما تولّت من وظائفَ، قبل الدخول إلى الدير وفي الدير، خيرُ ترجمان.

ولعلَّ التوقّفَ عند الدورِ الذي اضطلعت به في التربية والتعليم هو ما يَعنينا مباشرةً، ونحن في جامعة؛ إذ كم هو جليلٌ واستثنائيّ أن يَحظى واحدُنا بمعلّمٍ على خطى «المعلّم»!

فيا رفقا المعلّمة، علّمينا أن نمشيَ الدربَ التي مشيتِ...

أيقونة رامبراندت والتوبة

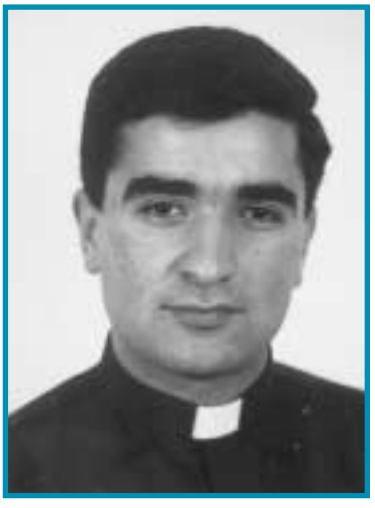

الأب ألبير عسّاف

حملت لوحة «الابن الضالّ» للفنّان رامبراندت الأستاذَ الجامعيّ هنري نيومن على الارتداد، وألهمته كتاباً في التأمّل بعنوان «العودة إلى الآب».

ولد الفنّان الهولنديّ Rembrandt في Leyde سنة ١٦٠٦ من أب فقير طحّان، شبّ على الرسم، وبدأ، منذ ١٦٢١، تعلّمه مع النحت في Leyde، ثمّ انتقل عام ١٦٢٤ للمتابعة في أمستردام على يد الفنّان الشهير آنذاك Pieter Lastman. سكن أمستردام نهائيّاً سنة ١٦٣١. وتوفيّ عام ١٦٦٩.

امتازت لوحاته بمصالحة الواضح – المضيء بالمبهم – المظلم. وصوّر عدّة واقعات ومشاهد من العهدين القديم والجديد.

وفي مقالتنا هذه نتوقّف عند لوحة «الابن الضالّ».

تتميّز اللوحة بإطارها العامّ المظلم، للدلالة على الجوّ الذي يخيّم على البيت الوالدي بعد رحيل الابن الأصغر عنه.

يحتلّ الأب في اللوحة المكان المحور، لأنّه بمثابة القلب في عائلته؛ فهو منحني الظهر، غنيّ بالطيبة والرحمة، شيخ جليلٌ ناضج، متّسعٌ لابنه، يغمض عينيه رضىً وأبوّةً ومسامحةً وسروراً وامتناناً بعودة ابنه بعد طول انتظار، والذي يصفه الأنجيليّ بالميت الذي عاش (لو ١٥/٢٤ و٣٢). يلبس لباساً ملوكيّاً – بحسب تعبير الايكونوغرافيا – يتمثّل في الوشاح الأرجوانيّ القاني، فيما اللون الذهبيّ يرمز إلى القداسة. يده اليسرى قويّة تحصّن الابن ببساطة وتقويّة وما تملك من الخيرات. ويده اليمنى ناعمة حنونة هادئة، كأنّما هي يد الأمومة التي تواسي الولد الضعيف وتطمئنه. صورة الأب هذه مرآة تعكس اللّه الآب الذي يجمع في شخصه الأمومة والأبوّة في آنٍ واحد.

أمّا الابن فيضمّه رامبراندت إلى حضن أبيه؛ فهو جاث عند مستوى «الرحم» دلالةً على استسلامه الكلّيّ لأبيه وولوجه إلى أعماق رحمة والده، ليحيا بعد موته فيولد من جديد. جثوّه إذاً علامة لولادته الجديدة. وما يظهر من وجهه في اللوحة هو أشبه بوجه جنين، مُغمض العين، يُخفي تعبيراته خشيةً وندماً وتحسّراً على ماضيه وضياعه وإفلاسه. إنّه خَجِلٌ من ذاته، من أبيه، من مجتمعه، من خطيئته، خفيضَ الرأس، هزيلاً، ثيابُه ممزّقة، لا يملك إلاّ عصاً إلى خاصرته استند عليها في مشاقّ طريق العودة.

كلّ هذا يدفعنا للتأمّل في معنى التوبة التي جسّدها هذا الابن الضالّ بعودته إلى والده، ما حدا أحد شرّاح الكتاب المقدّس إلى القول: لو ضاع الانجيل كلّه وبقي لنا مَثَلُ الابن الشاطر لكان كافياً ليخبرنا عن رحمة الآب ومحبّته اللامتناهية.

فالتوبة في اللاتينيّة هي paenitentiae، وتعني القصاص أو العقاب، وأصلها pena أو peine في الفرنسيّة، ما يعني أنّها فعل ضدّ الخطيئة، يقوم به الانسان ليكفّر أو ليعوّض أو ليجابه خطيئةً ما وقع فيها؛ وهذا يبيّن الفكر أو طريقة التفكير اللاتينيّة الغربيّة.

أمّا في الفكر اليونانيّ فللتوبة ترجمة أخرى وحُلّة تتناسق

والفلسفة اليونانيّة، وهي «ميتانويا»، ومعناها بالتّحديد «تغيير الذهنيّة»، وقد جاءت تعبيراً عن منطقيّة اليونان في الفكر، هو الذي يحرّك العمل والمسؤول الوحيد عن ديناميّة البشر وعلاقاتهم.

أمّا الفكر السامي فكان عملانيّاً بحتاً. وعلى غراره فكرُ الرسل والتلاميذ، وفكرُ المسيح أيضاً المتجسّد في بيئته الساميّة التفكير والتعبير. فالتوبةُ تنبثق من فعل «طوب» في السريانيّة، أو «شوب» في العبريّة، والتي تعني «العودة إلى الطريق بعد الضلال عنه». إذاً هي تختلف جوهريّاً عن الفكر الغربيّ. فهي ليست فعلاً مضاداً للخطأ، بل هي عنصرٌ مكوّنٌ للايمان المسيحيّ وملازمةٌ لحياة المؤمن، لَكأنّها مرادفة للإيمان، على ما يذكر الإنجيل. «توبوا وآمنوا بالانجيل» (مر ١/١٥)، هي بوصلة تدلّنا على الطريق الصحيح، وتردّنا عن الطريق الضالّ، وبعبارة الأخرى: الأداة التي من شأنها أن توجّهنا دوماً إلى السماء.

وعلى هذا سُميّ الرهبان السريان في الشرق «تايوبه» أو «أبيله»، أي التائبين أو البكاة، على عكس ما سمّاهم اليونان «موناخوس»، أي المتوحّدين؛ ولكلّ حضارة ثقافتها! أمّا الرهبان الشرقيّون فكانوا يعكسون، حتّى في تسميتهم، كلمة «توبة»، لأنّها مرادفة لحياتهم الرهبانيّة النسكيّة.

المراجع:

P. BAUDIQUEY, Pleins signes, les éditions du Cerf, 1988.

Rembrandt, in Auvimages 45; Paris, Septembre 1983, pp: 24 - 28.
P. BAUDIQUEY, A propos de

Encyclopédique Larouse, Dossier Rembrandt, Paris 1994, p. 1325.
Dictionnaire

الأب الياس خليفة، الصوم، محاضرة في دير سيّدة اللويزة، أثناء الاختلاء الشهريّ في ٢٠٠١/٣/٣١.

حين يعزف وليد مسلّم تغيب الآلة عن المشهد

محمّد ماضي
مدير عام سابق
للثقافة والتعليم
العالي

بين أصابع العازف وآلة البيانو صراع.. يجهد في الضرب على مفاتيح النغم، ومن وجع المدافعة تنبلج الأنغام رائعة ساحرة، تثير غبطة النفوس وتذكي نشوة الهبوب.

تلتهب أكفّ الحضور بالتصفيق، فيطرب العازف.. يغدو الطرب متبادلاً في تضادّ البثّ والتماوج.. يصير الفرح عارماً، وتتوسّع حدود المشهد...

وجع الأصابع وجع الأكفّ.. معالجة تنتج معالجه.. والنغم انسراب سرّيّ بين الأوتار والنفوس...

تتراقص الأنامل الضاربة، في مشهديّة المسرح، وتتنقّل.. مرّة تفترق اليدان، ومرّة تتلاقيان.. وأحياناً تتقاطعان.. يزوغ النظر في ناريّة الحركة، ونفتقد آلة العزف. يضحي الوليد ملء المكان...

تنقلنا الأنغام إلى مفاصل التاريخ وأيّام خلت.. عدوُ الأصابع تدافعُ الخيول، وصخبُ العزف صرخاتُ الفرسان.. لا يهمّ من يربح.. اللذّة في استعادة الصورة، والنشوة في انسراح الخيال...

حين ترقّ الألحان، تتباطأ حركات الأنامل، كما تتمايل السنابل.. ريح تغار.. تداعب أزاهير الوزّال.. ويضوع العطر تحيّة.. يعبق الطرب في الأجواء كعبق الطيب في الأرجاء...

يستغرق وليد مسلّم في عزفه، كمتصوّف في صلاته.. ويضطرم مع الهتاف كنار تشعلها العاصفة...

نقرأ على بطاقة الدعوة، أنّ العازف معلّم للفلسفة وأستاذ للموسيقى.

أن يعزف أستاذ الموسيقى على آلة البيانو، فتلك بداهة.

أمّا أن يعزف عليها معلّم الفلسفة، فهذه مسألة.

فالتحليل والتقرير والجدليّة والمنطق، أمور تشغل الفكر والعقل عن الفنّ والإبداع والدقّة، لانصرافهما إلى الأمور الكبيرة من دنيويّة وما ورائيّة.. ولانشغافهما بالبداية والنهاية والمصير...

للمهارة مواعيد مع الموهبة.. والإبداع تمرّد على المألوف.. عزف الفنّان موهبةٍ وإبداع.. وللفنّان مزيّة المعلّم ينفع الناس بنشر علمه.. ولا يحتكر في صدره أسراراً تفيد...

وليد مسلّم سرّ أبيه في البذل والعطاء.. أرج زهر يفوح على المدى.. ينشي وينعش ويبعث آهات الانشراح.. يثير مكامن الصلوات والحمدلة والشكر على النعم...

رقيق شفيف كصفحة الماء في صحو الربيع.. تتلقّى وتعكس الوقائع بلا وسائط أو مجمّلات.. يجذب المتفرّج بانحناءات رأسه وارتفاع ساعديه وانخفاضهما، مرّات على فجاءة وأحياناً على ارتياح.. حركات تؤدّي العزف وتنخرط فيه.. تبدو الألحان أصوات الأصابع والأنغام مسارب الروح.. بين الملموس واللامرئيّ عذوبة التلقّي وسر الصمت وإدراك السماع..

تكفي المستمع رحلة في عباب الخيال، وللعازف فضل استحضار الفراديس.. العروج إلى الجنان في مقعد وثير، لحظات غياب عن وعي الوقائع.. لحظات تحليق خارج الذات.. لحظات لها شريكان يلتقيان في اندلاع الوجد والتماع النور.

يا مبدعاً نقلتَنا من وجدنا لوجدنا.. صرنا نراك ولا نراك.. هل تهت في عتمة النور؟..

وليد مسلّم

يا هبة زحليّة للمشتهى الموعود.. زحلة السخاء، منارة البدع المجنّح، كالشعر من عبقر في هدأة الوادي.. هي الذرى صوامع الثلوج، والماء تجذبه الودايا...

يا ثلجها وماءها أبدع خريراً للحياة...

بيروت في: ٢٠٠١/٥/١٢

الديوان

الأعمال الشعريّة الكاملة للدكتور منيف موسى

صدر حديثاً «الديوان» الأعمال الشعريّة الكاملة للدكتور منيف موسى، بطباعة أنيقة مميّزة وإخراج ممتاز.

وبهذه المناسبة أُقيم احتفال، بتاريخ ٢٠٠١/٥/١٠، في المعهد الأنطونيّ – بعبدا، تحدّث فيه: الوزير الدكتور ميشال موسى، والقاضي الدكتور غالب غانم رئيس مجلس شورى الدولة، والسفير الأستاذ فؤاد الترك؛ وقدّم له وأداره الأستاذ أمين زيدان؛ وكانت كلمة الشكر للمحتفى به.

و«الديوان» يضمّ المجموعات الشعريّة التي نشرها ولم ينشرها الشاعر حتّى اليوم، وهي: عاشق من لبنان، إيقاعات على دفتر الحبّ، لُنَى، مهرجان النار (يُنشر لأوّل مرّة)، ثمّ قصائد لاحقة.

والشعر في «الديوان» يتنوّع، بين الكلاسيك، والحرّ، والمُحرّر، وقصيدة النثر.

وقد صدّره الدكتور موسى ببيان شعريّ، يحدّد فيه نظريّته الشعريّة ومفهومه للشعر، ويتحدّث عن بعض تجاربه.

وفي ما يأتي نصوصُ كلماتِ المنتدين:

د. منيف موسى

* من مواليد بلدة الميّة وميّة (صيدا – جنوب لبنان).
* مارس فنّ النحت، وشارك في غير معرض للفنون التشكيلية، ثمّ انصرف إلى الكتابة: نقداً وبحثاً وشعراً وتدريساً جامعيّاً.
* أستاذ في كليّة الآداب في الجامعة اللبنانيّة – وأحد أساتذة الدراسات العليا فيها – مشرف على أطاريح الدكتوراه ورسائل الماجستير، وأستاذ فقه اللغة العربيّة والنقد العربيّ القديم والمعاصر.
* أستاذ زائر في غير جامعة وطنيّة (سيّدة اللويزة) وأجنبيّة.
* عضو عدّة هيئات ثقافيّة في لبنان والخارج.
* شارك ويشارك في غير ندوة ومؤتمر وحلقة أدبيّة وفكريّة في لبنان والخارج.
* له عشرون مؤلّفاً في الأدب والنقد والشعر، وبحوث متعدّدة في مجلّات ودوريّات متخصّصة.
* آخر إصدار له: أعماله الشعريّة الكاملة: «الديوان».
* صدر عنه كتاب: مرايا الزمان (أو منيف موسى في ثلاث وثلاثين سنة من حياته الفكريّة والأدبيّة).
* تُرْجِمَ شعره إلى اللغة الإنكليزيّة.
* تقوم حول شعره وفكره النقديّ دراسات أكاديميّة.

كلمة الوزير د. ميشال موسى:

أعذب الشعر وأصفاه ما تسلسل في الأنفس تسلسلَ حبّات الندى على وجنات الزهر عند البكور.

وأجمل الشعر وأبهاه ذاك الذي يبدّل السكونيّةَ حركةً حبلى، والجمودَ تحوّلاً، والمتناهي تجاوزاً موصولاً بديناميّة الحياة في هذا الكون الجميل.

وأروع الشعر وأعجبه ما زاوج بين الحسّ والخيال، والرؤية والرؤيا، والواقع والحلم، مزاوجةً تحمل المتأمّل إلى أصقاعَ نورانيّةٍ تذكّر النفسَ بالأصول.

والشعر الشعر ما سرت في أوصاله هذه الأنواع المعشوقة ليغدوَ ينبوعَ سحر يملك الألبابَ ويأخذ بمجامع القلوب.

والديوان الذي نحتفل بصدوره يكثر الشعر الشعر في ثناياه والتضاعيف. وغير كثير أن يكون كذلك، وصاحبه الدكتور منيف موسى قد أذهله الأدب عن كلّ حطام، فانقطع له انقطاعَ أهل النسك والعبادة. فإذا هو قارئ أخذته القراءة، فأكبّ يعبّ من مناهل التراث والحداثة من دون ارتواء، حتّى استوت له ثقافة متنوّعة المنابت والألوان والأشذاء. وإذا هو ناقد حباه الله ذائقة جماليّة تساعفه على التمييز بين الغثّ والسمين، وبين الرديء والطيّب تمييزاً أنزله منازل الصدارة في ميدان النقد الأدبيّ.

ولقد بهرني في هذا الديوان أربع سواطع:

منها **اندماج الأصالة والحداثة** اندماجاً فذّ التماسك. فشاعرنا مؤمن بأنّ التراث يحمل في حناياه روائع ما برحت تفتن وتأسر، وبأنّ المعاصرة تلفح التراث بوهجها فتُسبغ عليه جديداً أنبته التطوّر وأملته نواجم العصر. فإذا هو، من هذه الشرفة، يعشق الموروث لاختزانه حضارة تالدة، ويتمثّل الحداثة لاختزانها حضارة طارفة دائمة التجدّد. وإذا هو يغرف من الحضارتين، ويشكّل من عناصرهما، في شعره، جبلة تلتحم فيها ملامح القديم بملامح الجديد التحاماً فريداً عجاباً.

ومنها **ظاهرة الصفاء** التي تُضفي على تلك الجبلة الإشراقَ الذي لا يدركه إلاّ أهل التصوّف. ومن نواجمها بريق علويّ يرخي على الديوان حسناً يعجب الخاصّ والعاميّ، ويفتن العاديّ والحاذق، ويحملهم جميعاً إلى حال من الذهول والدهشة والانبهار.

ومن تلك السواطع **دفء حميم** جرى في ثنايا القصيد، تشعر من خلاله أنّ شاعرنا يترجم عنك، ويجسّد معاناتك والأحلام، ويتمثّل رؤاك والتحوّلات.

ومنها **فنيّة فذّة** تطالعك في كلّ صورة من الصور التي فتقت بها قريحته وأنجبها الخيال، حتّى لكأنّه واحد من الصاغة الحاذقين، تروعك منه براعة معجبة في صياغة الكلم وصهر المفردات.

ولعلّ شاعرنا، في ذلك كلّه، قادر على أن ينقلك إلى عالم مبتدأه الواقع ومنتهاه الحلم، عالم مسحور يشغلك عن اليوميّ المبتذل بالإنسانيّ الشامل، عالم بهيّ تسمو فيه النفس من الخاصّ إلى العامّ، ومن الفرديّة إلى الكونيّة، ومن المنغلق إلى اللامتناهي.

وبعد، فيا أيّها الشاعر الغرّيد، مُنيتنا أن يتّصل صداحُك لأنّ فيه مؤانسةً للأسماع، وفتنةً للنفوس، وغذاءً للألباب.

كلمة القاضي د. غالب غانم

مُنيف موسى في «الديوان»
شاعريّة الريشة وشاعريّة الحياة

تتأمَّلُ في بعض أهل القلم فتطالعُك لديهم شاعريّتان تتكاملان وتتوافقان، تترافقان وتترافدان، هما شاعريّة الريشة وشاعريّة الحياة. بتلاقيهما، ترتدي الموهبةُ رداءها الشّفيف، ويبلغُ الصّدقُ أعلى ذراه، ويَستحيلُ جمرُ المعاناة مجامرَ كلمات، ويجري النّهر في مجراه الطبيعي، ويَنبلجُ صباحُ الجسد وصباحُ الحبر انبلاجاً لا كلفةَ فيه، وتبحثُ عن مكان القصيدة فتجدُه ناقصاً إذا أخذتَ مَنْ كتبَها وحدَهُ، وإذا أخذتَ ما كُتبَ وحدَهُ، وكاملاً إذا أحسنت التعرّف إلى الذات الواحدة «تُعطيكَ من قلبها شعراً ومن يدها شعراً، فما لك من سُكرينِ من بُدٍّ...»

الرّفيقُ المُنيف، الصّادقُ الشّفيف، المُكابدُ المُعاني، الرسوليُّ المتفاني، مَنْ إذا أضعْتَهُ وجدتَهُ في ظلال مكتبة، أو بين جمهرة أقلامٍ وأوراق... ومَنْ إذا تتبّعت مسارَهُ ودعاك داعي الفضول إلى استجلاء الجوهريّ من اهتماماته، رأيتَهُ منشغلاً بملاعبة مغازل الجمال وبمجاورة منابع الحكمة... رفيقُنا هذا، هو واحدٌ من الذين يطيبُ لك أن تقرأ الشّعرَ في ديوان حياتهم، قبل قراءته في قصائدهم...

بَسَط على النّاس ألواحَ صدره. بَثَّ نجاواه ومواجيدَهُ حتّى لدى إلقاء التّحايا عليهم. كشف لهم عن مرايا الرّوح. غضبَ الغضبات النبيلةَ لإعادة حقٍّ سُلِب. أحبّ كما يُحبُّ الأنقياء وأهلُ الوفاء والصوفيّون. سبَّحَ خلقَ اللّه في الطبيعة وانساح في مفاتنها واتّحد كما الحلوليّون. ما راوغ وما خاتلَ وما آذى. وفوق هذا كلّه آثَرَ أن يظلَّ في حالة عشق ولم يتزوّج... لأجل ذلك كلّه، وقبل أن يكون من شعراء الرّيشة، استحقّ أن يكونَ من شعراء الحياة.

تعودُ بي الذاكرة، بَيْنَا أنا مُكبٌّ على قراءة ما تجمَّعَ في سطور هذا «الديوان»، إلى أيّام عزيزات خَوالٍ تَمَّ فيها المُلتقى، في كليّة الآداب من الجامعة اللبنانية، منذ حوالى عقود أربعة، بيني وبينَ الصّديق مُنيف. أذكُرُ أنّ المبادرة الأولى صدرت عنه، حينَ أبدى اهتماماً لشعر والدي عبداللّه غانم. وكنتُ ولا أزال – يا لَوفاء البنوّة – أجدُني مشدوداً برابطٍ تلقائيّ من الودّ إلى كلّ من يُقدّر شعر الوالد الحبيب. ولم

تكن العلاقةُ مقتصرةً على هذا الوجه وحسب، فمَا جمَعَنا كان جَمّاً، وراسخاً... كان الزمانُ خضيباً، وكانت الجامعةُ واحةً للمعارف، وموئلاً للحقائق، ومسرحاً للنّضالات. كنّا نقدّم العقل ونتبعُهُ، ونؤمن بالحوار ونتوسّلُهُ، وننتصرُ لأشرف القضايا منتظرينَ الفجرَ الجديد، ونتشوّقُ نسائمَ الحداثة دون أن تصرفَنا إغراءاتُها عن الأصالة، ونحبُّ لبنان دون أن نحتكرَهُ أو نُسخّرَهُ أو نُصغّرَهُ. وكنّا، وفرعُ الاختصاص الذي اخترناه – في عداد ما اخترنا – هو الأدب العربيّ، نكنُّ للّغة العربيّة حبّاً جارفاً أجّجتْهُ فينا جنائنُها الغنّاء، ومدائنُها الفيحاء، وخزائنُها المعطاء، وكونَها حملت إلى العالم مشاعلَ حضارة إنسانيّة تخطّت نشأتها العاربةَ في مدى محدودٍ وفي صحراء... وراحَ دولابُ الدّهر يدورُ، ومضى كلٌّ منّا في سبيله دون أن تنقطع حبالُ المودّة وأسبابُ التواصل، وتزاملنا إلى حين أساتذةً في الجامعة، ووقفَ كلٌّ منّا على أفراح الآخر وأتراحه، في تلك الشطرة المتقلّبة بين الغبطة والأسى من عمر الوطن. وصار الدكتور منيف موسى في موقعه، وصرتُ في موقعي.

والزّمان، ذلك الذي يبتلعُ ولا يَشبع، ينقلنا من الغضاضة إلى مشارفَ أخرى في مدارج الحياة. ولكنّه، على مرارته، يحتفظ لكلٍّ منّا بكوّة من كوى الضّوء، وبخانة من خانات الذّكرى، فَنرتاح إلى ما شهدناهُ مع الأتراب – ومنهم مُنيفٌ – من أيّامِ عذاب كنّا نبحث فيها عن لغة جديدة، وننضمّ إلى كلّ جميل، وننتصرُ للإنسَان، ونعشقُ الحريّة.

صَدَّرَ الشاعرُ ديوانَه ببيانٍ شعريّ ضَمَّنَهُ مفهومَه للحداثة رافضاً ما سمّاه «مملوكيّة» الكلمة مختاراً مستقبليّتها التي لا تتنكّر للأصالة، وجالَ في لغة الشعر ولغة النثر، ودعا إلى معماريّة جديدة للقصيدة، وعرّجَ على وصف بعض المطوّلات من قصائده. بعد ذلك، أثبتَ فيه مجموعاته الشعريّةَ الخمس، وهي على التوالي: عاشقٌ من لبنان، وإيقاعات على دفتر الحبّ، ولُنى، ومهرجانُ النّار، وقصائد لاحقة. وبالمستطاع أن نرى في المجموعات الخمس، على تنوّع صورها وحالاتها وموضوعاتها، محاورَ ثلاثةً هي الحبيبةُ وعبرَها الجمال، والأرضُ وعبرَها الوطن، والثورةُ وعبرَها الإنسان.

إنّني أرى من الصّعب، بل من المجحف، التصدّي للديوان بمجمله في كلمة عابرة كهذه الكلمة. كما أرى أنّ ثمّة حركةً فنّية فيه تطوّرت ما بين شعر الصبا (لُنى) وشعر التجربة الناضجة، وتميّزت فيها الثانية على وجه أكيد. وقد رأيت أخيراً أن أختار واحدةً من المجموعات (عاشق من لبنان) لتدوين الانطباعات والملاحظات التي يفرضُها المقام. فماذا في هذه المجموعة؟

من اللّافت، أوّلاً، أنّ الشاعر يحيا في مُناخ الجرح الكبير، جرح الوطن الكبير. فقد سمّى القصيدة الطويلة الأولى «لبنان على الخشبة». وغنّى بيروت وشربَ من خمر مراراتها في القصيدة الطويلة الثانية المسمّاة «مواسم الحبّ والموت». ولم يغبِ الوطنُ حتّى في القصائد المنذورة للحبيبة، ومنها «غجريّة من الجنوب»:

لأنّك الجَنوبُ كلُّهُ
يخضرُّ لبنان
وينبتُ الأرزُ والسنديان في قلوب العشّاق والمحبّين.
. . . لأنّك آتيةٌ من شواطئ صيدا
يصيرُ البحرُ عاشقاً،
والصّخرُ وسادةً،
وحبّاتُ الرّمل بساطاً سحرياً لقدميك.
. . . أيّتُها الغجريّةُ التي من الجنوب
ريحُ الجنوب عطرُكِ ولونُكِ
فارتسمي فوق دفتري قصيدةَ حُبّ.

الجرحُ الوطنيّ الكبير لا يُرى ولا يُلمسُ في الشعر، إذا اكتفى الشعراء بالوصف والنّقل، وإذا راوغوا أو بالغوا، وإذا لجأوا إلى الطنّان الرنّان، وأشعلوا النّار في الخارج ليقولَ النّاس إنّها نارُهُم. وهو يُرى ويُلمسُ بالفعل – كما هي حالُ وطنيّات وقُلْ شهقات منيف موسى – إذا وصَلَ حزنُ الوطن إلى مفاصلك، وجعلتَ نارَك تتأجّج في أقاليم ذاتك، وصار القلمُ الذي تكتبُ فيه امتداداً لرفرفات روحك وخفقان قلبك، وغضبتَ أو حنوتَ غضبةَ أو حنوَّ الأبرار الأنقياء الأباة، غضبةَ أو حنوّ الأب والأمّ على وليد كان كالصّبح فراحت الدّنيا تقذفُهُ بحمم الظلم وتُلقي عليه مشالحَ الظّلام.

ومن اللّافت، ثانياً، أنّه يحيا في مُناخ الحبّ الكبير. ولا يكونُ الحبُّ كبيراً إلاّ إذا توافرتْ له مقوّماتٌ تبدأ بالحالة وتنتهي بالرسالة. الحالةُ هي اشتعالُ شرارة أولى تُلهب المشاعر التي تحرق اليابس في القلب وتُحيي الأخضرَ النّضر فتصبحُ الروحُ متقلّبةً بين النّار – ومن ألسنتها الجوى – والهواء – ومن مشتقّاته الهوى –، وينزاحُ كلُّ طيف إلاّ طيفُ الحبيب، ويتصعّدُ من أعمق الأعماق نَشيدٌ يختلطُ فيه الحزنُ والفرح، فيرتعشُ الجسدُ على إيقاعات الرّوح... أمّا الرسالةُ فهي أن يُطلقَ العاشقُ نأماته ونبضاته وإشعاعات قلبه وقلمه في أسلاكَ تمتدّ من طواياه إلى طَوايا من يُغنّيه، فلا تقفُ عند هذه الضفّة، بل تمتدّ إلى ضفاف النّفس الإنسانية، ويتحوّل القولُ إذ ذاك من شَعرٍ للحبيبة، إلى شعرٍ للحبّ.

ومن اللّافت، ثالثاً، أنّ الشاعر اقتفى أثر «نشيد الأناشيد» في مَبناه مُتقناً تحويلَهُ إلى نشيد لبنانيّ عربيّ في مَنحاه:

شَعرُكِ سنابلُ الغضب في حقول «حطّين»
والطقسُ في «هعرابا» حارٌّ حتّى الاشتعال.
الرياحُ الجنوبيّة تهبّ أعاصير،
سأقتلعُ الخيامَ النّازحةَ المنصوبةَ في العيون.

فالغضبُ آتٍ على ظهور الخيل.

وخالدُ بن الوليد يجدّد اليرموك

وطانيوس شاهين يقودُ «الفلاّحين» الرابضين في أعماقِ الأطفال...

ومن أخشابِ الأرز تُرفعُ المنازل للعذارى

لأنّ الربيعَ أزهرَ في القبور.

أشجارُ الغضب سورُ بيتنا المبنيِّ من زيتون الجبل

والعرس في «قانا الجليل» عرس الأبطال الخارجين من اللّهيب...

يا كُلَّ الغضبِ الآتي من الجنوب

أُحبُّكَ... أُحبُّك...

أُحبُّكِ يا أرضَ الجنوب التي سيّجتُ مواسمَها برموش عينيّ

لتُنبتَ الحرابَ والرماحَ وسيوفَ الأحرار.

ومن اللّافت، رابعاً، المقطّعات الصغيرة التي حملت لوحاتٍ شعريّةً جمعت الصورة إلى النَّغَم في أروعِ عناقٍ فنّي:

أرفّعُ لبنان تتمجَّدُ كأسُ الدنيا...

أو:

الزّنبقةُ الحمراء كتبتْ لي رسالةً.

أو:

أغضبُ تَخْضَوْضِرُ عظامُ الموتى

يقومُ البطل وتجري الجياد.

ومن اللّافت، خامساً، أن الشاعر توسَّلَ النّثر طريقاً إلى الشعر ولم يقَعْ في النثريّة. فالشعر، وإنْ كنّا نقدّر ونُشجّع المنظوم المقفّى منه إذا كان أصيلاً وجميلاً وعاكساً عبقريّة اللغة، لا حَدَّ له إلاّ الشعريّة التي تأتيك من كلّ الأصواب وعبر كلّ الأشكال إذا كنتُ ممَّنْ أُوتوا قلماً يغرفُ من الأعماق، ويَسبحُ في الآفاق، ويُحرّك أجراسَ الدّاخل.

وماذا بعد؟؟

لن أَنسى أنّ الذوقَ بلغ ذروته في إخراج الكتاب، ورقاً صقيلاً مترجّحاً بين الورديّ والنبيذيّ، وهما لونان يليقان بشعر الحبّ، ويُحاكيان جراحَ الحرّية.

كلمة السفير
فؤاد التُـرك

حين قرأتُ له «مرايا الزمان»، وهو يختصر ثلث قرن من حياته الفكريّة والأدبيّة، أكبرتُ فيه زخماً في النشاط، وهمَّةً في الإنتاج، ووفرةً في التنوُّع، بين النحت والكتابة نقداً وشعراً وأبحاثاً وإشرافاً على أطروحات.

وحين قرأتُهُ يروي تجربته الشعريّة، وسط ما عانى وعاين وناضل وكافح، عصاميّاً عنيداً وطالباً للعلم جَلوداً على غير يأْس، أكبرتُ فيه وصوله إلى صدور القمم، لا داعم له سوى إيمانه، ولا دافع له سوى طموحه، ولا داعٍ له سوى إصراره على بلوغ القمّة حيث يهنأ مع كبارها.

وإنّه وصل، بما ذرف من وقت وعمر وضوء عينين.

ويلفتني فيه أنّه عاصر الحركات الشعريّة جميعاً، من أوّل الرمزيّة إلى آخر الحداثة، وظلّ على ما هو في القناعات، ديدنه الشعر ودأبُهُ الأصالة أنّى كانت وكيف جاءت، فالمهمّ القصيدة أن تخرج لائقةً بما يضمره شاعرها من قيمٍ وتراث.

ولكي يكون لائقاً بالمتابعة على مستوى المتابعة، راح ينوع زوّادته الأدبيّة، بين أدب معاصر، وأدب حديث، وأدب مقارن، ولغة، ونقد أدبيّ، ونقد مقارن، وغوص في التراث، واستشراف على الحداثة والمعاصرة، حتّى لَيمكن القول إنّه أحاط بكلّ ما يخوّله امتشاق القلم لكتابة نصّ فاصل في النقد، أو قصيدة فاصلة في حركة الشعر.

وظلّ بين الكتابة الإبداعيّة والنقد والتقييم، يعمل على تأصيل الحداثة وعلى تحديث التراث، في منهج أكاديميّ علميّ قائم على ركائزَ أساسيّةٍ من الأنماط والأعراف.

وما هي حتّى طالعني ديوانه، فطالعتُه بتلك الخلفيّة التي عرفتُها عنه قبل أن أفتح الديوان. وإذا بها تُعينني في مطالعة «الديوان» على قراءة القصيدة، وما في خلفيّات القصيدة من عناصرَ ثقافيّة وتقنيّة وشاعريّة، تزخر بها تجربة الشاعر الغنيّة، على أكاديميّة وُثقى، ومنحى واضح صوب تأصيل الأصول.

هذه الأمور جميعاً، وجدتُها مجمَّعَةً في مقدّمة الديوان، حيث راح الشاعر يفصل في النسيج بين نثر وشعر، بدقّة الخبير العارف، وبخبرة المتمرّس في أمور الشعر قرضاً وتدريساً وتبيانَ نظريّات.

هو يرى أنْ لم يعد للوزن ضرورة، ولا عادت القافية ضروريّة للشعر. وهو يرى أنّ الهدير الداخليّ هو الذي وحده يحدّد مسار الشعر. من هنا أنّه ارتضى النثريّة نوعاً يطغى على شعره، رغم إيمانه بأنّ النثر لا يمكن أن يصل إلى حدّ الشعر، لأنه تقريريٌّ تحليليّ، بينما الشعرُ إيحاءُ ورمزٌ وإيجاز. وبيقينه أنّ اللغة، في ذاتها، رمز، راح يستخدم اللغة بالشكل الذي يكتب به الشعر، رافعاً إيّاها إلى مستوى الشعر. من هنا قناعته أنْ ليس هناك كلمة شعريّة وكلمة غير شعريّة، بل هناك استخدام صحيح للفظة؛ وبهذا الاستخدام يمكن أن يتوغّل الشاعر إلى غابته الشعريّة الداخليّة.

هذه هي العلاقة الحميميّة التي يَنْشُدُها شاعرنا بين الشاعر واللغة. فإذا امتلك الشاعر لغته، وما فيها وما بها وما إليها، باتت طيِّعة بين يديه، وراح يحمِّلُها شحنات الشعر بكلّ ما في الشحنات من صُوَر وعواطف ومناخات بعيدة أو قريبة، وهي تطاوعُهُ لتُطْلِعَ من أفكاره نسيجاً نضراً حديثاً جديداً، يجعل القصيدة تقول جديداً في الحركة الشعريّة.

وفي كلّ هذا، مع أنّه يمشي عكس السير في مفهوم القصيدة التقليديّة الكلاسيكيّة، يظلّ على موقفه من الأصول والأصالة، فلا يدّعي الحداثة بمفهومها السائد، بل يقول بالتجربة الفنيّة الإبداعيّة المنفردة، محاولةً منه أن يصار لاحقاً إلى تعميمها إن هي أخذت طريقها الإقناعيّة إلى القلوب والنفوس والأذهان.

لذا يؤمن، وهنا فضله الكبير، أنَّ الحداثة أن تكون في صميم التراث. أن تجدّد من داخل التراث. أن تأتي بمعطيات جديدة فعلاً ليست تقليداً لأحد ولا معارَضَةً لأحد، ولا تَشَبُّهاً بأحد، ولا تأثراً بَبَّغاوياً بأحد.

بهذه المعطيات تمكّن من أن يدخل حركة القصيدة العربيّة المعاصرة في ثقة وثبات، وأن ينحت فيها صوته الشاعر في دقّة وتقنيّة، عبر قصائد لا تعتمد المعلّقات نهجاً كلاسيكيّاً، بل تتّخذ نمط الأصوات واللوحات نهجاً مغايراً، متفرّداً، منسجماً مع نحو الشاعر صوب التجديد من داخل الأصول.

بهذا المنحى، بلغت قناعة الشاعر منهجيّة الشكل السمفونيّ في الشعر. وهو يعتمد التفهّم العميق لعبقريّة اللغة، لأنّ التجربة الشعريّة وحدها كفيلةٌ بتحديد الشكل السمفونيّ للقصيدة. لذلك، نحا إلى التغيير الشعريّ من أجل قصيدة عربيّة معاصرة جديدة، تغيِّر من المعماريّة الشعريّة القديمة ومن البناء الشعريّ القديم. وهذا بالطبع يستتبعه تغيير في شكل البناء، وتالياً في هندسة القصيدة العربيّة.

فبين أن يقول الشاعر:

«بلادي الشمس تستحمّ في البحر الواقف على أهدابك»،

وبين أن يصرخ أنّ «البندقيّة تُطلع خبزاً للجائعين» مسافةٌ الصوت الواحد المتعدّد ضمن النغميّة الواحدة. وهذا ما قام به الشاعر في المجموعات التي يضمّها هذا «الديوان».

وكثيراً من تبلغ به الرؤيا نَفَساً ملحميّاً:

«من هذا المتسربل بالليل؟
القابض على كلّ أجنحة الإعصار؟
الطالع من كلّ قبور الشهداء،
من تحت الجبل الأخضر»؟

ويستمرّ في رؤياه بين الخيال والواقع:

«إله العشق يستحمّ في عينيك
أيّتها الأرزة الخضراء
في عينيكِ تشرق الرؤيا
وتلتهب النار
لأنّك سيّدتي»

وقد يحنُّ حتّى أقصى الحنان:

«أيُّ ترانيم القصيدة أنتِ
وأيُّ قصر يضاء؟
يندلق الشعر من أصابعك كؤوساً
فتعود الخمر خمراً
ويدفأ ثلج الشتاء».

إنّها لحظة البوح في إشراقة الصحوة العاشقة:

«أحبّك فوق الظنونْ
حبّ الندى للورد
حبّ الفنونْ
أحبّك وفي أضلعي نارٌ
وفي خافقي يثور حبٌّ وجنون».

هكذا، بين «عاشق من لبنان» و«إيقاعات على دفتر الحبّ»، و«لُنى»، و«مهرجان النار» و«الأرض الضائعة» و«الشعر والفروسيّة» و«المجد والبطولة»، و«المزامير الحمراء» و«قصائد لاحقة»، يزخر ديوان هذا الشاعر بكلّ جديد وطريف ومغاير، ويحملنا معه إلى ضوءٍ جديدٍ لرؤيةٍ شعريّةٍ جديدة، رؤيةٍ مسكوبةٍ من خبرةٍ وتجربةٍ ممهورتَين بتوقيعٍ خبيرٍ حاذق: منيف موسى.

الدِّيوانُ

الدكتور منيف موسى

والختام كان بكلمة شكر للدكتور منيف موسى، استهلّها بهذه الأبيات:

عَروسةَ الشعْرِ، يا غَيْداءَ وجداني — يا رَبَّةَ الوَحْيِ إلهاماً بألحاني
يهفو العريسُ إلى أحضانكِ كَلِفاً، — في موكبِ الصَّمْتِ: تحناناً بتحنانِ
دَيْرُ الكراماتِ في الآدابِ دَوْحتُنا — والكِلْمَةُ / البَدْءُ: إنجيلي وقُرآني
مَنْ عَبْقَرٌ، مَنْ جبالُ الريحِ دارتُه — يعلو الهُنَيْهَةَ في ألواحِ ألوانِ
يذوبُ في الشعْرِ قَطْراً، لا يُضارِعُهُ — إلاَّ الشعاعُ سماحاً: نُوْرَ نُوراني
يُلاعِبُ الحَرْفَ أندى مِنْ هفَا ألِفٍ — ويَسْكُبُ البرقَ في كاساتِ مَرْجانِ
سِحْرُ الرُّقيَّاتِ في الأشعارِ هاتفةً — حُلْمُ العذارى، وحُلْمُ الريّقِ الراني
كِبْرٌ، لهُ، مِنْ سَماءِ الشرقِ، يُغنجِهُ — مَيْسانُ خَصرٍ، أوْ أسيافُ لبناني
عِزُّ البُطولاتِ، لا حِقْدٌ، ولا أَشَرٌ — شَعْبي أنا الحقُّ، لا يعنو لطُغيانِ
نُصافِحُ المجْدَ، نَغْدو للأُلى عَلَماً، — نُجاوِرُ اللهِ، في الدُّنيا، بإيمانِ
يا طامعاً في بلادِ الأرزِ، شيمَتُنا، — رَدُّ العداوةِ. إنْ لبنانُ ربّاني
عروسةَ الشِعْرِ، عفواً، أنْتِ ضَيْفَتُنا — والعُرْسُ عُرْسُكِ، والأهلونَ خُلاّني

الإيساغوجي أو المدخل إلى المنطق

المؤلّف: الخوري بطرس التولاوي

صدر عن منشورات جامعة سيّدة اللويزة كتاب «الإيساغوجي أو المدخل إلى المنطق»، وهو مخطوطة تعود إلى العام ١٦٨٨ بقلم الخوري بطرس التولاوي. راجع المخطوطة وقدّم لها الدكتور أمين ألبرت الريحاني بدراسة تناولت المؤلّف وثقافته وأعماله الفكريّة واللاهوتيّة والأدبيّة ومكانته في بداية الحركة التنويريّة في المشرق العربيّ منذ القرن السابع عشر. وفي المقدّمة أنّ التولاوي سعى، عبر هذا الكتاب، وسائر كتبه الفلسفيّة، إلى بناء جسر جدليّ بين العقل والإيمان تأثّراً بالفلسفة السكولاستيكيّة الأوروبيّة في العصر الوسيط، وبخاصّة بفكر توما الأكوينيّ، ومحاولة إعطاء هذا الفكر بعداً مشرقيّاً. وخلصت المقدّمة إلى أنّ التولاوي «يشكّل رمزاً لبواكير الوعي الفلسفيّ في المشرق... وقد أتخذ هذا الوعي لنفسه منهجاً ذهنيّاً وهيكليّة متماسكة... وهو بهذا المعنى من المؤسّسين الكبار ومن آباء عصر التنوير».

تقديم: أمين ألبرت الريحاني
الناشر: جامعة سيّدة اللويزة
عدد الصفحات: ٣٤٣ صفحة
تاريخ المخطوطة: ١٦٨٨

يشتمل نصّ المخطوطة على أفعال العقل الثلاثة وهي التصوّر، أو العمل الذهنيّ وما يتعلّق به من شؤون تتناول حدود القضيّة ومناسبة الحدود وما يخصّ الحدود؛ ثمّ التصديق، أو حكم الذهن بين سلب وإيجاب وما يتعلّق به من ضروب المنطق اللغويّ؛ ويليه الانتقال الفكريّ بنوعَيه: الانتقال بالقوّة والانتقال الاعتباريّ استناداً إلى القياس وأشكاله وقواعده وأصوله.

يقع الكتاب في ٣٤٣ صفحة من القياس الوسط، وتجمع طباعته الأنيقة بين الصفحات المصورة للمخطوطة وما يقابلها من النصّ المطبوع.

ويشكّل هذا الكتاب بداية لسلسلة أعمال فلسفيّة للتولاوي، فالمدخل إلى المنطق تلاه كتاب المنطق، فعلم الطبيعيّات، والعلم الإلهيّ، وكتاب الفلسفة الأدبيّة. ويشكّل الإيساغوجي الخطوة الأولى، بل حجر الأساس، لعمارة فكريّة شاهقة بدأ بنيانها يعلو، في لبنان والمشرق، مع نهاية القرن السابع عشر. وأشارت المقدّمة إلى أنّ الغاية المباشرة من الإيساغوجي قد تكون في تدريس هذه المادّة في المدرسة المارونيّة في روما «لكنّ الغاية القصوى والأهمّ هي رسم الإطار لحركة نهضويّة ولعمل تنويريّ ينطلق من الأعمال التأسيسيّة الفلسفيّة. والمدخل إلى المنطق مدخل إلى دربة العقل، وبالتالي دربة اللغة... هكذا يحتل الإيساغوجي موقعه الفكريّ والأدبيّ والتربويّ ككتاب رائد من الكتب التي ساهمت في بناء التراث المشرقيّ الحديث بقالبه العربيّ وبروحه الإشراقيّة وبأبعاده الفكريّة التي أضاءت نوراً كدنا نهمله رغم محاولته تبديد الظلام».

وتكمن مكانة التولاوي في التكوين الفكريّ والثقافيّ لديه وما نتج عنه. إذ يدخل هذا التكوين في إطار المدرسة السكولاستيكيّة في الفلسفة التي تزعّمت حركة المزاوجة بين العقل والإيمان في أوروبا في العصر الوسيط تأثّراً بفكر توما الأكوينيّ. فالعقل، وفق «الخلاصة اللاهوتيّة» للأكوينيّ، قابل لأن يعمل من داخل الإيمان. والعقل، بهذا الفعل، لا يقف عند حدود المنطق بل يتجاوزه إلى ديناميّة التجريب والمراقبة. من هنا اعتقاد السكولاستيكيين بأنّه لا يمكن للعقل أن يخفي أيّة حقيقة قد تكون مناهضة للإيمان والمعتقد اللاهوتيّ، لأن لا حقيقة في الوجود قائمة من دون الإرادة الإلهية. وقد عمل التولاوي على بثّ هذا الفكر الفلسفيّ في المشرق عبر تآليفه وترجماته، إذ أدرك باكراً أنّ الإيمان المتروك من دون تحصين عقليّ لا يمكن أن تكتب له الحياة.

ويأتي هذا الكتاب بداية لمشروع يقضي بنشر عدد من المخطوطات الفلسفيّة واللاهوتيّة والأدبيّة والتاريخيّة التي تشرف جامعة سيّدة اللويزة على مراجعتها وتحقيقها والتقديم لها. والغاية من هذا المشروع نشر بعض الأعمال التراثيّة البارزة التي تشكّل مدخلاً لفهم الحركة التنويريّة العربيّة التي انطلقت من لبنان إلى العالم العربيّ منذ القرن السابع عشر.

العذراء مريم في لبنان

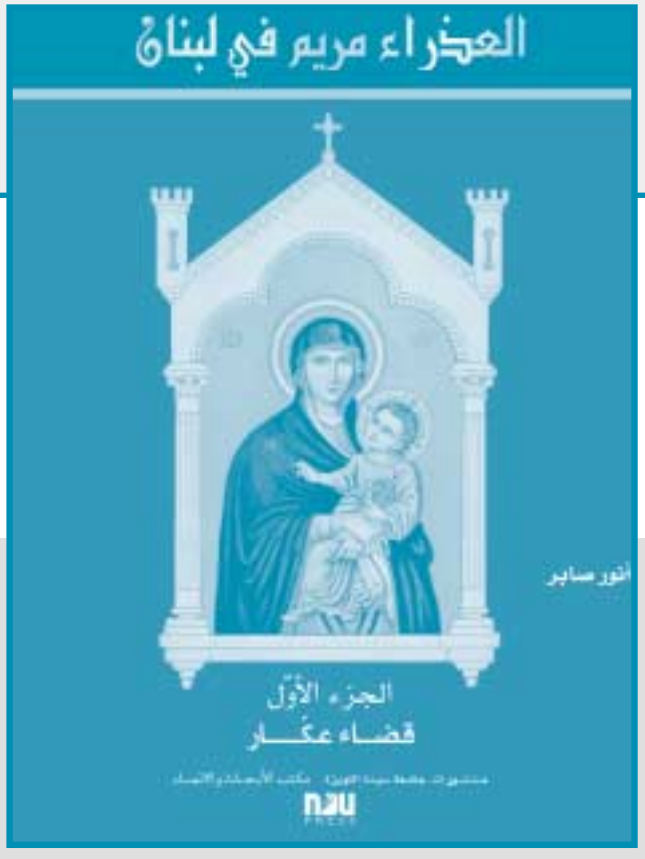

المؤلِّف: أنور صابر
الناشر: جامعة سيّدة اللويزة
عدد الصفحات: ٣٢٥
تاريخ النشر: حزيران ٢٠٠١

في العام ١٩٩٧، أصدرت جامعة سيّدة اللويزة كتاباً للأستاذ جورج مغامس «في جنّة مريم»، تضمَّن باقة من الأناشيد والقصائد، كتبها شعراء وأدباء لبنانيّون في العذراء القدّيسة.

ومع بداية الألف الثالث للمسيح، قرَّرت هذه الجامعة إصدار كتاب موسوعيّ يحكي فيه الأستاذ أنور صابر عن حضور تلك «المُبارَكة بين النساء»، زهرة الأرض، أمِّ اللّه القدّيسة، في لبنان.

يدور العمل، في ظلّ عنوان كبير هو «العذراء مريم في لبنان»، على العلاقة التاريخيّة بين العذراء مريم ولبنان من الوجوه: الليتورجيّة واللاهوتيّة والتاريخيّة والتقويّة والبنويّة، حبّاً وتشفُّعاً وتعبُّداً. فهو يُسلِّط الضوء على حضور العذراء في لبنان من كافّة مواقعه: من انطلاقة الإكرام الليتورجيّ في الكتب الطقسيّة والبيعيّة، إلى شفاعة مريم عبر الأجيال، إلى اللاهوت المريميّ، إلى الكنائس والمزارات التي شُيِّدت على اسمها في كلّ لبنان.

ومنذ بدايات العمل، كان القرار بأن يكون المسحُ لأماكن التعبُّد للعذراء شاملاً لكامل الأراضي اللبنانيّة، وأن يبدأ مسارُه الجغرافيّ من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، تبعاً للتقسيمات الإداريّة اللبنانيّة. ولهذا خرج من الطبع، بدايةً، الجزء الأوّل من هذا العمل الموسوعيّ ليغطّي منطقة عكّار.

وهذا الجزء الأوّل تضمَّن، في صفحاته الأولى، مقدِّمات المشروع الكامل، مُكلَّلة ببركة رسوليّة من غبطة السيّد البطريرك الماروني الكاردينال مار نصرالله بطرس صفير، ومباركة ثمينة من قدس الأب العام للرهبانيّة المارونيّة المريميّة الأباتي فرنسوا عيد، ومقدِّمة من رئيس جامعة سيّدة اللويزة الأب بطرس طربيه، ومقدِّمة المؤلِّف.

بعد المقدِّمات العامّة تمهيد عن قضاء عكّار، تاريخاً وجغرافياً ووجوداً مسيحيّاً ومريميّاً، مع منهجيّة العمل والشكر.

أمّا المضمون، فتَبِعَ التسلسل الأبجديّ لبلدات القضاء وقُراه حيث كنائس العذراء ومزاراتها. وعن كلّ بلدة وقرية مُقدِّمة صغيرة ووصف للمقام مع لمحة تاريخيّة وتوثيقٍ فوتوغرافيّ وإبرازٍ للمُميِّزات والموجودات القيِّمة والمحفوظات والخصائص وتقاليد التُقى.

الوفاء قبلة الوداع

جو معكرون/ خرّيج ٢٠٠١

أصعب مفترقات الحياة هو الوداع. والإنسان، في نسيج تكوينه، يرفض الوداع وينفر منه، ويطوّع نفسه كي يبقى خارج دائرة النسيان.

اليوم، نغلق الباب على مرحلة، لنبدأ أخرى في جدليّة الحياة التي تكاد أن تكون حلقة مفرغة من الصراع والانتظار.

اليوم، نطوي صفحة مفصليّة في تاريخنا الذاتيّ، كانت بالنسبة لي مرحلة تأسيسيّة على مستوى الفكر والتفاعل؛ مرحلة مليئة بالمفارقات والتناقضات والتحدّيات واللقاءات، مليئة بالفرح والخجل والقوّة والخوف والكرامة والحزن، والذكريات التي تصنعها وتصنعك، ومن دونها أنت ذكرى إنسان.

بعد ست سنوات وشهادتين، أستطيع القول، وبضمير مرتاح: كفى، وشكراً. وأجمل شعور، في قبح الوداع، هو الشعور بالوفاء المتبادل، الشعور الداخليّ أنّني لم أمرّ في أروقة هذه الجامعة من دون لمسات ومن دون أثرٍ في مكانٍ ما أو في ذاكرةٍ ما، والشعور بالوفاء لجامعة أضحت جزءاً من تاريخي ووجودي واستمراريّتي.

وقبل الوداع، تحيّة وفاء للعائلة التي احتضنت، والتي صنعت، بعرقها ودموعها، الحلمَ في داخلنا، رغم الصعاب. تحيّة إلى ذاك البيت الصغير، إلى المرجعيّة الثابتة في دنيا التحوّلات.

والشكر أيضاً إلى من وقف معنا في لحظات الشكّ والخوف والتردّد، وإلى الأيادي البيضاء التي تنثر الضوء على دروبنا، فتنيرها وتمهّدها.

وفي لحظات الوداع، كثيراً ما نستحضر الذكريات، ونحوّلها إلى أساطير لا تتكرّر، أو إلى أخطاء لا تصطلح؛ فالواقعيّة صفة غريبة من عالم الوداع، وضمير الوداع المتعب.

ويبقى السؤال: ماذا نفعل غداً، بعد عرس الوداع
والفرح في حفل التخرّج قبل التدرّج في الحياة؟ هي دوماً أزمة
الخيارات الصعبة التي تحدّد المسار والمصير!

ويبقى السؤال أيضاً وأيضاً: ما هو أكثر أهميّة؟ ماذا تفعل، أو من أنت؟

بعضنا متوجّه إلى «مديريّة التوجيه» للقضاء على ما تبقّى من فُتات الوطنيّة القابعة سهواً في ذاكراتنا الجماعيّة. والبعض الآخر سيهرب من الوطن أو يهرب من نفسه، لا أدري! والجامع بين الجميع، هو أنّنا جميعاً ذاهبون إلى المجهول، ذاك السهل الممتنع، ذاك القدر الغامض الذي يتنازعك على مسرح الحياة، وفي كواليسها.

كثيرون قد يهجرون الوطن، إن لم يهاجروه فكراً ونضالاً وحلماً. كثيرون قد يهجرون الوطن، والخوف أنّ بعضهم يبحث عن آخر. وتحضرني هنا كلمات منصور الرحباني: «إذا فيك تكون بلا إسم، فيك تكون بلا وطن». فالوطن ليس مسألة خيار، بل مسألة قدر. الوطن من دون إنسان مجرّد أرض. وحين يقع الجوع والظلم، تضيق الأرض بمن فيها، فيرحل بعض الناس، ويتّسع الوطن أرضاً.

مجرّد لحظة تأمّل كي يبقى خيار الهجرة عند الشباب خياراً مرحليّاً وظرفيّاً، وكي لا يكون خيار مستقبلنا الذاتيّ على حساب لبنانيّة الوطن!

وتحيّة إلى الجامعة الجميلة والبسيطة، بعيداً عن التعقيدات، رُغم صغر عمرها وقلّة تجربتها على دروب العلم. نعم، جامعتنا جميلة! ولكن، إن غفلنا عن بعض شوائبها نقترف مزيداً من تشويهها، وأنا لست من التشويهيّين.

جامعتنا جميلة. ولكنّها تفتقد بعض الاحتراف، وبعض المؤسّساتيّة، وبعض المراكز البحثيّة، والحيويّة الفكريّة والأكاديميّة. والجامعة بالتّالي لا تقوم على المبادرات الفرديّة التي لا بدّ أن تزول مع الزمن؛ بل تقوم على الروح المؤسّساتيّة التي تبقى فوق المصالح الضيّقة، وفوق تداول السلطة، وفوق مزاجيّة البعض. نقول هذا الكلام الذي يسكن داخلنا منذ سنوات، لأنّ مستقبل الجامعة، وإن نغادرها اليوم، سيبقى هاجسنا. نقوله خوفاً على الجامعة، جامعتنا، من نفسها.

نعم. الوفاء قبلة الوداع. وكم نحن في حاجة إلى أن نتصالح مع التاريخ والماضي والذاكرة!

هذه «وصيّة» الوداع من طالب عاش في عائلة الجامعة لسنوات، وفي هياكلها القديمة والجديدة تسكن ذكرياته، التي ستبقى دوماً خارج دائرة النسيان. ما سنحمله اليوم في قلوبنا يتجاوز، في الأهميّة، ما نحمله في عقولنا. فاحفظوا، يا رفاق، «براءة» هذه المرحلة في قلوبكم. إحفظوها من تلوّث المصالح وبشاعة الواقع، واحفظوها من أنفسكم أيضاً. وألف مبروك للجميع.

من منشـــورات الجـــامعـة

من منشـــورات الجـــامعـة

سلسلة الشّأن العامّ

من منشـــورات الجـــامعـة

سلسلة الشّأن العامّ